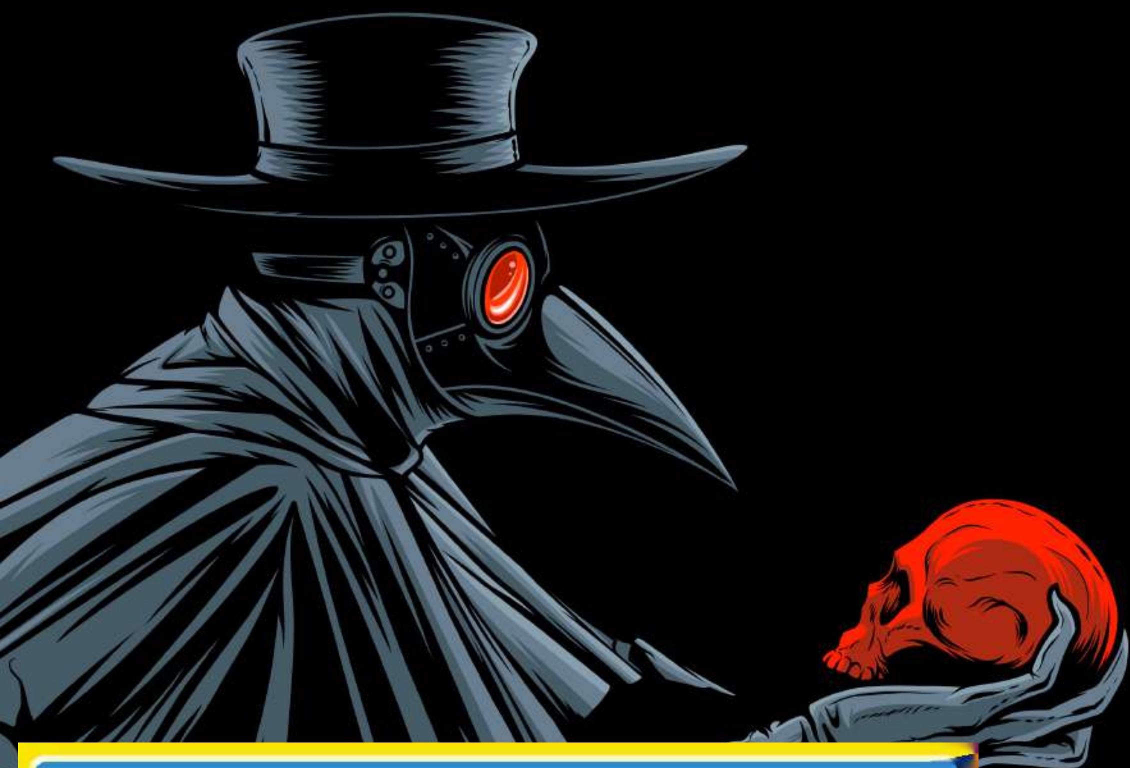
الطاعون القرمزي

جاك لندن



أهم جروبات علي تليجرام

باحثون

هنا سور الازبكية

غواص في بحر الكتب

قناة مصر الثقافية و الفنية

الطاعون القرمزي

تأليف
جاك لندن

ترجمة
الزهراء سامي

مراجعة
هاني فتحي سليمان



الطاعون القرمزي

جاك لندن

The Scarlet Plague

Jack London

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٠٨٠ ٢

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١٢.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠.

المحتويات

الفصل الأول	٩
الفصل الثاني	٢٣
الفصل الثالث	٣٥
الفصل الرابع	٤٩
الفصل الخامس	٦١
الفصل السادس	٧٣

أهم جروبات علي تليجرام

باحثون

هنا سور الأزبكية

غواص في بحر الكتب

قناة مصر الثقافية و الفنية



بدا أن العالم أجمع تطوقه النيران.

أهم جروبات علي تليجرام

باحثون

هنا سور الأزبكية

غواص في بحر الكتب

قناة مصر الثقافية و الفنية

الفصل الأول

كان الطريق على امتداده يؤدي إلى ما قد كان ذات يوم جدارًا تعلوه سكةٌ حديديةٌ. كانت حركة القطارات عليها قد توقفَّت منذ سنواتٍ عديدة. امتدَّت الغابة على جانبَي الجدار، وظلَّلته بأشجارها وآجامِها. كان الطريق ضيقًا بحيث لا يسَع سوى شخصٍ واحدٍ، ولم يكن ثمة أكثر من ممرٍّ للحيوانات البرية. وبين الحين والآخر، كانت تُرى قطعةٌ حديدية صَدِئة بين عفَن الغابة، معلِنةً أنَّ القضيب والعوارض ما تزال موجودة. في أحد الأماكن، انبثقت شجرةٌ طولها عشر بوصاتٍ عند إحدى الوصلات؛ فرفعَتْ طرف أحد القضبان حتى أصبح ظاهرًا بوضوح. وكان واضحًا أنَّ العارضة قد رُفِعت مع القضيب؛ إذ كانت مربوطة فيه بمسمار تثبيتٍ كان طويلًا بالدرجة التي تكفي لأنْ يَمتلئ قرارُها بالحصى وأوراق الأشجار المُتعفِّنة؛ ومِن ثمَّ، فقد اندفعت العارضة الخشبية المُفتَّتة المُتعفِّنة بمَيلٍ غريب. وبالرغم من قِدَم الطريق، فقد كان من الواضح أنه من النوع الأُحادي القضيب.

كان ثمة عجوزٌ وصبيٌّ يسافران على هذا الطريق. تحرَّكا ببطءٍ؛ إذ كان الرجل طاعنًا في السن ويعاني من درجةٍ من الشلل جعلت حركاته مُرتعشة، وكان يتَّكئ على عصاه بشدَّة. على رأسه قُبعة خشِنة من جِلد الماعز تحميه من الشمس، ومن تحتها انسدلَتْ خصلةٌ هزيلة من الشعر الأبيض المُبقَّع القذِر. وقد ظلَّل على عينَيه حاجبٌ للشمس صُنِع ببراعةٍ من ورقة شجر كبيرة، ومن تحته كان ينظُر إلى الطريق الذي تخطو فيه قدماه. أما لحيته التي كان من المُفترَض أن تكون بيضاء ناصعةً كالثلج، لكنها كانت تحمل علامات البِلى من الطقس والبُقَع من التخييم في العراء والتي كان يحملها شعرُه أيضًا، فقد تدلَّت حتى خصرِه تقريبًا على هيئة كتلةٍ ضخمة مُتشابكة. وعلى صدره وكتفَيه، تدلَّت قطعةٌ واحدة جرِبة من الثياب صُنِعت من جلد الماعز. كانت ذراعاه وساقاه تتَّسِم بالنحالة

والتغضُّن ما يدلُّ على طعونِه في السن، مثلما دلَّت الندوب والخدوش وسفعاتُ الشمس على السنوات الطويلة التي تعرَّض فيها لظروف الطقس القاسية.

أما الصبيُّ الذي كان يقود الطريق كابحًا هِمَّةَ عضلاته كي تُناسب خطواتُه الإيقاع البطيء الذي كان يسير به العجوز، فقد كان هو أيضًا يرتدي قطعة واحدة من الثياب، وهي قطعة رثَّة ذات حواف مُهترئة من جلد الدِّبَبة، وبها فتحة في المنتصف أدخل منها رأسه. لم يكن عمره يزيد عن اثنَي عشر عامًا. حَشر فوق إحدى أذنيه، على نحوٍ يلفِتُ الانتباه، ذَيلَ خنزير لم يكن قد مضى وقتٌ طويل على بترِه. وكان يحمل في إحدى يدَيه قوسًا متوسط الحجم وسهمًا.

كان يحمل على ظهره جُعبة مملوءة بالسهام. وقد كشف جِرابٌ مُعلق حول رقبته بشريطٍ رفيع عن مقبضِ سكينِ صيدٍ أصابه البِلى من كثرة الاستخدام. اسمرَّت بشرة الصبي لتعرُّضِه كثيرًا لسفعات الشمس، وكان يسير بهدوءٍ في خطواتٍ أشبهَ بخطوات قِط. وفي تبايُنٍ واضح مع بشرته السمراء، كانت عيناه زرقاوَين، بل داكنتَي الزُّرقة، لكنهما يقظتان وحادَّتان كمِثقابَين. كانتا تتفحَّصان على ما يبدو كلَّ ما حوله بطريقةٍ كانت مُعتادة. وقد راحَ يشتَمُّ الأشياء في أثناء مَسيرِه أيضًا، فكان مِنخاراه المُنتفخان المُرتجفان يُرسلان إلى دماغه عددًا لا نهائيًّا من الرسائل من العالم الخارجي. كانت حاسَّة سمعِه حادةً هي الأخرى، وقد كانت على درجةٍ ممتازة من التدريب حتى إنها كانت تعمل تلقائيًّا؛ فبدون مجهودٍ واعٍ منه، كان يسمع جميع الأصوات الخافتة وسط ذلك الهدوء الظاهري. كان يسمع هذه الأصوات جميعها ويُميِّزها ويُصنِّفها، سواءٌ أكانت أصواتَ حفيف الرياح في أوراق الشجر، أو طنين النحل والبعوض، أو هدير البحر البعيد الذي لم يكن يصِل إليه إلا همهمة هادئة، أو حتى صوت أحد القوارض تحت قدمَيه وهو يدفع حفنة من التراب نحو مدخل جُحرِه.

فجأةً أصبح مُتوترًا في انتباه؛ فحواسُّ السمع والبصر والشم جميعها قد نقلتْ له تحذيرًا فوريًّا. عادت يدُه إلى الرجل العجوز تلمسُه، ووقف كلاهما ساكنَين. في الأمام، على قمَّة أحد جانبي السور، صدر صوت طقطقة، وتركَّزت نظرةُ الصبي على قِمَم الأجمات المُضطربة، ثم ظهر دبٌّ ضخم أشهب، لكنه توقَّف فجأةً مثلما توقَّفا عند رؤيته لهما. لم يرُوقا له وراح يعوي بتذمُّر. وبتمهُّلٍ وضَعَ الصبيُّ السهم في القوس ثم شدَّ وترَه، لكنه لم يرفع بصرَه أبدًا عن الدُّب.





شدَّ الصبي وترَ القوسِ بتمهلٍ.

حدَّق العجوز في الخطَر الماثِل أمامهما من تحت ورقته الخضراء، ووقفَ هادئًا مِثلما فعلَ الصبي. استمرَّ هذا التفحُّص المُتبادَل لبضع ثوانٍ، ثم كشف الدبُّ عن اهتياجه المُتزايد؛ فأومأ الصبيُّ إلى العجوز بحركةٍ من رأسه بأنَّ عليه أن يتنحَّى جانبًا عن الطريق، وأن ينزل عن الجدار. تبِعَه الصبيُّ وهو يسير بظهره إلى الوراء، بينما لا يزال يُمسك بوتر القوس جاعلًا إيَّاه مشدودًا وجاهزًا. انتظرا إلى أن سمِعا صوتَ تهشُّمٍ قادم من بين الأجمات على الجانب المقابل من الجدار أخبرَهما بأنَّ الدُّبَّ قد واصل مسيره. ابتسم الصبي ابتسامةً عريضة وهو يسير عائدًا إلى الطريق ومِن ورائه العجوز.

ثم ضحك ضحكةً خافتة قائلًا: «إنه دبٌّ كبير أيُّها الجدُّ.»

هزَّ العجوز رأسه.

تبرَّم قائلًا في صوتٍ خافتٍ لكنه لا يزال مسموعًا: «إنَّ عددها يزداد كلَّ يوم. من كان يظنُّ أنني سأعيش لأرى اليوم الذي يخاف فيه المرءُ على حياته وهو يسير في الطريق المؤدي إلى كليف هاوس. حين كنتُ صبيًّا يا إدوين، كان عشرات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال يأتون إلى هنا من سان فرانسيسكو في أيام الطقس الصَّحْو. ولم يكن ثمة دِبَبة في ذلك الوقت. أجل يا بُني، كان البشر يدفعون النقود كي يشاهدوها وهي في أقفاصها. لقد كانت على هذه الدرجة من الندرة.»

«ما هي النقود أيُّها الجدُّ؟»

قبل أن يتمكَّن العجوز من الإجابة، تذكَّر الصبي وأدخل يدَه في جرابٍ تحت جلد الدبِّ الذي يرتديه، وأخرج منه دولارًا فضيًّا باليًا وباهتًا. التمعَتْ عينا العجوز بينما قرَّب إليه الصبي تلك العُملة المعدنية.

تمتم قائلًا: «لا أستطيع الرؤية، انظر أنتَ يا إدوين، ولترَ إذا ما كنتَ تستطيع قراءة التاريخ.»

ضحك الصبيُّ وصاح بسرور: «إنك رائعٌ أيُّها الجدُّ؛ فأنت تتظاهر دومًا بأنَّ هذه العلامات الصغيرة تعني شيئًا.»

أظهر العجوز انزعاجًا مُعتادًا بينما راح يُقرِّب العملة المعدنية من عينَيه مُجددًا.

صاح قائلًا: «٢٠١٢!» ثم راح يُثرثر بصوتٍ حادٍّ غريب: «لقد كان ذلك هو العام الذي عيَّن فيه مجلس الأقطاب مورجان الخامس رئيسًا للولايات المتحدة. لا بدَّ أنها كانت إحدى آخِر العُملات التي سُكَّت؛ فالطاعون القرمزي قد حلَّ بالبلاد عام ٢٠١٣. يا للعجَب! يا للعجب! تخيَّل هذا! منذ ستِّين عامًا، وأنا الشخص الوحيد اليوم الذي عاشَ في ذلك العصر. أين وجدْتَها يا إدوين؟»

وعلى الفور، أجاب الصبيُّ الذي كان ينظُر إليه بالفضول الحليم الذي يُوليه المرءُ إلى ثرثرة واهِني العقول:

«لقد أخذتُها من هو-هو الذي وجدَها حين كُنَّا نرعى الماعز بالقُرب من سان هُوزاي في الربيع الماضي. وقد قال هو-هو إنها «نقود». ألسْتَ جائعًا أيُّها الجدُّ؟»

زاد العجوز من إحكام قبضته على عصاه، وأسرع في السير على الطريق، بينما عيناه تلمَعان في شراهةٍ.

راح العجوز يُتمتِم: «أتمنَّى أن يكون هير-ليب، قد وجد سلطعونًا ... أو اثنَين. فالسلطعون طعامٌ جيد، بل لذيذ للغاية لا سيَّما حين تفقد أسنانك، ويكون لدَيك أحفاد يُحبون جدَّهم ويحرصون على اصطياد السلطعون من أجله. حين كنتُ صبيًّا ...»

لكنَّ ما رآه إدوين قد استوقَفَه فجأة، وشدَّ وتَر القوس على سهمٍ وضعَه فيه. كان قد توقف على شفا صدْع في الجدار؛ ففي هذا المكان، كان يُوجد مصرفٌ قديم وقد رُدِم، ولمَّا لم يعُد تيَّار المياه محجوزًا، فقد شُقَّ ممرٌّ في هذا الردم. على الجانب المقابل، ظهر طرف قضيبٍ مُتدلٍّ، وقد بدا صدئًا بين كرمات العنب التي افترشتْه. وفيما وراء ذلك، كان ثمة أرنبٌ رابض بجوار أجمةٍ قد نظَر إليه في تردُّد خالطه ارتجاف. كانت المسافة بينهما خمسين قدمًا كاملة، لكنَّ السهم قد انطلق بسرعةٍ خاطفة وأصاب الهدَف، وراح الأرنب المطعون يُحاول بصعوبةٍ شديدة أن يبتعِد ويتوارى وسط العُشب، وهو يصرُخ رعبًا وألَمًا. بدا الصبيُّ نفسه كأنه وميضٌ من البشرة البُنِّية والفراء الطائر، حين قفز أسفل الجدار المُنحدِر للفجوة، وصعد إلى الجانب الآخر. كانت حركاته رشيقة وبارعة بفضل عضلاته الصغيرة المشوقة التي بدَتْ وكأنها نوابض من الصُّلب. وبعد مائة قدم، في كتلة مُتشابكة من الشجيرات، داهمَ الكائنَ الجريح، ودقَّ رأسَه على جذع شجرةٍ مناسب، وأعطاه الجدَّ كي يحمِله.

تحدَّث العجوز بصوتٍ مُتهدج: «الأرانب جيدة، جيدة للغاية، لكن حين يتعلق الأمر بطعامٍ شهي لذيذ، فإنني أُفضِّل السلطعون. حين كنت صبيًّا ...»

قاطع إدوين بنَفاد صبرٍ ثرثرة الجدِّ التي لا تُفيد: «لماذا تُثرثِر كثيرًا ثرثرةً فارغة؟»

لم يتفوَّه الصبي حرفيًّا بهذه الكلمات بالضبط، وإنما تفوَّه بشيءٍ يُشبهها من بعيد، شيءٍ أكثر غِلظةً وعُنفًا واقتصادًا في العبارات المُلطِّفة. كان حديثه ينمُّ عن وجود صِلة قرابة بعيدة تجمعه والعجوز، وكان حديث الأخير بلغةٍ إنجليزية تشتمل على الكثير من الاستخدام الخاطئ للكلمات والتراكيب.

تابع إدوين حديثه: «ما أريد أن أعرفه هو السبب في أنك تَصِف السلطعون بأنه «طعامٌ شهيٌّ لذيذ؟» السلطعون هو السلطعون، أليس كذلك؟ إنني لا أعرف أيَّ أحدٍ على الإطلاق يصِفه بمثل هذه الأوصاف الغريبة.»

تنهَّد العجوز لكنه لم يُجب، وتابعا سيرَهما في صمت. علا صوتُ الأمواج فجأةً إذ خرجا من الغابة إلى بساطٍ من الكثبان الرملية يحدُّ البحر. كان هناك بضع عنزاتٍ ترعى في الرَّوابي الرملية، يحرسها صبيٌّ يرتدي ثيابًا من جلود الحيوانات يُعاونه في ذلك كلبٌ



ذِئبي يذكِّر قليلًا بكلاب الكولي. واختلط مع هرير الموج صوتُ نباحٍ أو عواءٍ كان يأتي من مجموعةٍ من الصخور المُحزَّزة التي كانت تبعُد عن الشاطئ بمقدار مائة ياردة؛ فهنا كانت أسُود البحر تجرُّ أجسامها كي تستلقي في الشمس أو ليتشاجَر بعضها مع بعض. أمامهما مباشرةً، ارتفع دخان نيرانٍ يقوم عليها صبيٌّ ثالث له مظهرٌ بربريٌّ أيضًا. وقد قبعَتْ بالقُرب منه عدة كلابٍ ذئبية شبيهة بالكلب الذي كان يحرس الماعز.

أسرَعَ العجوز في مشيتِه، وراح يتشمَّم بلهفةٍ بينما كان يقترِب من النار.

تمتم في نشوة: «بلَح البحر! بلَح البحر! أوليس ذلك من أنواع السلطعون يا هو-هو؟ أليس ذلك من أنواع السلطعون؟ مَرحى! إنكم أيُّها الصبية تُحسِنون إلى جدِّكم العجوز.»

ابتسم هو-هو الذي كان يبدو أنه في عمر إدوين ابتسامةً عريضة.

«لك كلُّ ما تريد أيُّها الجدُّ، لقد أحضرتُ أربعة.»

كانت لهفة العجوز المُرتجفة مُثيرة للشفَقة. لقد جلس على الرمال بأسرع ما تسمح له أطرافه المُتصلبة، وأخرج بلحةَ بحرٍ كبيرة من بين الجمْر. كانت الحرارة قد فلقَتْ صدفتها، وكان لحمها سلَمُونيَّ اللون قد نضج تمامًا. بين الإبهام والسبابة، أمسك اللُّقمة في عجلةٍ مرتعشة وحملها إلى فمه، لكنها كانت ساخنة للغاية؛ فلفظها بعُنفٍ في اللحظة التالية. غمغم العجوز مع شعوره بالألم، وسالت الدموع من عينَيه على خدَّيه.

كان الصَّبِيَّان همجِيَّينِ حقًّا، لا يتمتعان إلا بحسِّ الفكاهة القاسي الذي يمتلكه الهمَج. بالنسبة إليهما، كانت الحادثة مُضحكة للغاية، وقد انفجرا في نوبة من الضحك والقهقهة. راح هو-هو يرقُص مُتحركًا إلى الأعلى والأسفل، وراح إدوين يتدحرَج في فرحٍ على الأرض، وأتى الصبيُّ الثالث الذي يرعى الماعز جرْيًا ليشارك في هذا المرَح.

تحدَّث العجوز مُتوسلًا في خِضَّم حزنه دون أن يحاول مسْح الدموع التي كانت ما تزال تنساب من عينيه: «ضعْها لِتبردَ يا إدوين، ضعْها لتبرد. وضَعْ سلطعونًا ليبردَ أيضًا. أنت تعرف أن جدَّك يُحب السلطعون.»

تصاعد من الجمر طشيشٌ كبير نتجَ عن تفتُّح أصداف بلَح البحر وخروج ما بها من سوائل. كانت أصدافًا كبيرة يتراوح طول الواحدة منها بين ثلاث بوصاتٍ وستٍ، وقد جمعها الصبيان بالعِصيِّ ووضعوها على قطعةٍ كبيرة من الخشب كي تبرد.

«حين كنتُ صبيًّا، لم نكن نسخُر من كهولنا، بل كنا نحترِمهم.»

لم يُبدِ الصبيان أيَّ اهتمام، واستمرَّ الجدُّ في الغمغمة بسيلٍ مُفكك من الشكوى والتبكيت، لكنه كان أكثر حِرصًا في هذه المرة ولم يحرِق فمَه. شرعوا جميعًا في الأكل، ولم يستخدموا في ذلك شيئًا سوى أيديهم، وقد أحدثوا ضوضاءً عالية بأفواههم وتلمَّظت شفاههم بصوتٍ مسموع. الصبيُّ الثالث الذي كان يُدعى هير-ليب، وضعَ رشَّةً من الرمل خلسةً على بلحة البحر التي كان العجوز يحملها إلى فمه، وحين وصلتْ حُبيبات الرمل إلى غشائه المُخاطي ولَثتِه، جلجلَ صوت الضحك مرةً أخرى. كان مُدركًا أنَّهم قد جعلوا منه أضحوكة، وراحَ يبصُق ويُغمغم إلى أن أعطاه إدوين، مُترددًا، قربةً من الماء العذب ليغسل بها فمه.

تساءل إدوين: «أين السلطعون يا هو-هو؟ إنَّ الجدَّ يرغَب في تناول وجبةٍ خفيفة.»

مرةً أخرى، لمعَتْ عينا الجدِّ شراهةً بينما كان يتناول السلطعون. لقد كانت صَدفةً كاملة بسيقانها وجميع أجزائها، لكنَّ اللحم كان قد غادرها منذ وقتٍ طويل. وبأصابع مُرتجفة وغمغمة التلهُّف، كسر العجوز إحدى السيقان، ووجدَها مليئةً بالفراغ.

راح يصيح شاكيًا: «أين السلطعون يا هو-هو؟ أين السلطعون؟»

«لقد كنتُ أمزح أيُّها الجدُّ، لا يُوجد سلطعون! إنني لم أعثُر على أيٍّ منه أبدًا.»

امتلأ الصِّبية بالبهجة عندما رأوا دموع خيبة الأمل وقد انسالت على خدَّي العجوز، وفي غفلةٍ منه بعد ذلك، وضع هو-هو على الصَّدَفة الفارغة سلطعونًا مَطهوًا طازجًا. وقد انبعثت من اللحم الأبيض الذي قد نُزِع من السيقان المشقوقة، غيمةٌ من البُخار الطيب الرائحة، وهو ما أثار منخاري العجوز فنظر إلى الأسفل في دهشة.

تغيَّر مزاجُه على الفور إلى حالةٍ من الفرح، وراح يتشمَّم ويُتمتم ويُغمغم، فكانت هذه الأصوات أشبَهَ بترنيمةٍ من البهجة قد ترنَّم بها قبل أن يبدأ في الأكل. لم يُعِر الصبية لذلك كثيرًا من الاهتمام؛ إذ كان مشهدًا مألوفًا بالنسبة لهم، وهم لم يلاحظوا أيضًا ما كان يُبديه من تعجُّبٍ بين الحين والآخر، ولا ما كان يتفوَّه به من عباراتٍ لم تكن تحمل أي معنًى بالنسبة إليهم. ومن أمثلة ذلك ما تفوَّه به حين تلمَّظ بشفتَيه وعضَّ على لثتِه مُتمتمًا: «المايونيز! فقط تخيَّلوا ... المايونيز! لقد مرَّت سِتُّون عامًا على آخر ما صُنِع منه! على مدى جيلَين، لم يكن هناك أثرٌ لرائحته! عجبًا، في تلك الأيام كان يُقدَّم في جميع المطاعم مع السلطعون.»

حين اكتفى العجوز من الطعام، تنهَّد ومسح يدَيه على ساقَيه العاريتَين، وشخَصَ ببصره إلى البحر. ومع شعوره بالشبَع لِما عُمِّرت به معدته، تملَّكتْه الذكريات.

«تخيَّلوا! لقد رأيتُ هذا الشاطئ مُفعمًا بالحياة مع وجود الرجال والنساء والأطفال في أيام عطلة الآحاد الرائقة، ولم يكن هناك من دِبَبة تلتهمهم! وفي الأعلى على هذا الجرف، كان هناك مطعمٌ كبير تستطيع أن تأكل فيه أيَّ شيءٍ تريده. في ذلك الوقت، كان يعيش في سان فرانسيسكو أربعة ملايين فرد، والآن لا يعيش في المدينة والمقاطعة بأكملها سوى أربعين فردًا. وهناك بعيدًا في البحر، كان يُرى دائمًا الكثير من السفن في طريق ذهابها إلى مضيق جولدن جيت أو إيابها منه. وكانت هناك السفن الهوائية؛ تلك الآلات الطائرة التي يمكن قيادتها وتوجيهها. لقد كان بإمكانها أن تطير مائتَي مِيلٍ في الساعة؛ فقد كانت عقود الإيجار التي أُبرِمت بين أصحاب هذه السفن وشركة نيويورك آند سان فرانسيسكو ليمتِدْ تشترط ذلك كحدٍّ أدنى. ثمَّة رجل فرنسي نسيتُ اسمه قد نجح في أن يوصِّل سرعة هذه



وهو ما أثار منخاري العجوز فنظر إلى الأسفل في دهشة.

السفن إلى ثلاثمائة مِيلٍ في الساعة، لكنَّ الأمر كان ينطوي على بعض الخطورة، بل كان خطيرًا للغاية بالنسبة إلى الأشخاص المُتحفِّظين. غير أنه كان على الطريق الصحيح، وكان سيتوصَّل إلى التدبير المُناسب لولا الطاعون العظيم. حين كنتُ صبيًّا، كان هناك بعضٌ من الأحياء الذين كانوا يتذكَّرون ظهور الطائرات الأولى، وها أنا قد عشتُ إلى أن رأيتُ آخر طائرة منها، وقد كان ذلك قبل سِتِّين عامًا.»

استمرَّ العجوز في الثرثرة دون انتباهٍ من الصِّبية الذين كانوا قد اعتادوا على مثل هذا اللغو منذ فترة طويلة، والذين كانت حصيلتهم اللغوية تفتقِر إلى الجزء الأكبر من الكلمات التي كان يستخدِمها. كان المُلاحَظ أنَّ لغته الإنجليزية التي كان يتحدَّث بها في هذه المُناجاة

العشوائية، تتشكَّل من جديدٍ في بناءٍ وصياغة أفضل، غير أنها كانت تنتكِس بشدَّة مرة أخرى حين كان يتحدَّث مع الصبية مباشرةً، فتعود لتصطبغ بما تصطبغ به أساليبهم وتراكيبهم البدائية الخرقاء.

تابع العجوزُ حديثه الشارد: «لكن السلطعون لم يكن كثيرًا في تلك الأيام. كان يَجري اصطيادُه، وكان طعامًا فاخرًا رائعًا. لم يكن موسم الصيد يزيد عن شهرٍ واحد، أما الآن فيمكن اصطياد السلطعون على مدى السنة بأكملها. تخيَّلوا، يمكن للمرء أن يصطاد كلَّ ما يريده من السلطعون في أيِّ وقتٍ يريده، من زبَد الأمواج المُتكسِّرة على شاطئ كليف هاوس!»

ثمة اهتياجٌ مفاجئ بين الماعز جعل الصِّبية يهبُّون واقفِين. واندفعتِ الكلاب المجتمعة حول النار لكي تنضم إلى رفيقها المزمجِر الذي كان يحرس الماعز، بينما راحت الماعز نفسها تندفع في اتجاه حُماتها من البشر. انحدرتْ سِتَّة أجسامٍ رمادية هزيلة على الروابي الرملية وواجهت الكلاب المُتأهِّبة. رمى إدوين سهمًا لم يُصِب الهدف، لكنَّ هير-ليب، بمِقلاعه الذي يُشبه المقلاع الذي استخدَمه داود في معركته مع جالوت، قذفَ في الهواء حجارةً أصدرتْ صفيرًا لسُرعة طيرانها. سقطت هذه الحجارة بين الذئاب مباشرةً؛ فتسلَّلت بعيدًا إلى الأعماق السحيقة في غابة الكافور.

ضحِك الصبية واستلقَوا مُجدَّدًا على الرمال، وراح الجدُّ يتنهَّد تنهُّدًا ثقيلًا. كان قد أكل كثيرًا، وإذ وضع يدَيه على بطنه وتشابكتْ أصابعه، استكمل هذَيانه.

غمغم بكلماتٍ كان من الواضح أنها اقتباسٌ ما: «تتلاشى الأنظمة الزائلة كما يتلاشى الزَّبَد. هذا هو الأمر، زبَد وزوال. كلُّ الجهود المُضنية التي بذلَها الإنسان على الكوكب، تلاشَتْ كالزَّبَد. لقد استأنس الحيوانات النافعة، وقضى على الحيوانات العنيفة، وأخلى الأرض من نباتاتها البريَّة. وبعد ذلك، رحل الإنسان نفسه، ثم حلَّ على الأرض من جديدٍ فيضان الحياة البدائية مُكتسحًا ومُدمِّرًا جميع ما صنعَتْ يداه؛ فغطَّت الحشائش والغابات حقوله من جديد، واستولتِ الحيوانات المُفترسة على قُطعانه، والآن ها هي الذئاب قد وصلتْ إلى شاطئ كليف هاوس.» أرعبتْهُ الفكرة وأردف يقول: «في هذا المكان الذي كان أربعة ملايين من البشر يُرفِّهون عن أنفسهم فيه، أصبحتِ الذئاب البرية تتجوَّل اليوم، وأصبح نسلُنا من الهمَج، يدافعون عن أنفسهم ضدَّ اللصوص ذات المخالب بأسلحتهم البدائية. تخيَّلوا! وكل هذا بسبب «الطاعون القرمزي» …»

جذبَتِ الصِّفة انتباه هير-ليب.



فتحدَّث إلى إدوين قائلًا: «إنه يُردِّد هذه الكلمة كثيرًا. ما القرمزي؟»

تحدَّث العجوز باقتباس: «اللون القرمزي في أشجار القيقب يهزُّني كصياح الأبواق حين تمرُّ بي.»

أجاب إدوين عن سؤاله: «أعرف أنه اللون الأحمر، وأنت لا تعرفه لأنك من قبيلة الشوفير. إنهم لا يعرفون أيَّ شيء أبدًا، لا أحد منهم يعرف أيَّ شيء.»

تحدَّث هير-ليب مُتبرِّمًا: «لكن الأحمر هو الأحمر، أليس كذلك؟ فما الداعي إلى التحذلق وتسميتِه بالقرمزي؟»

توجَّه بالسؤال إلى الجدِّ: «لماذا تتحدَّث كثيرًا عن أشياء لا يعرفها أحدٌ أيُّها الجدُّ؟ القرمزي ليس بشيء، لكن الأحمر هو الأحمر؛ فلماذا لا تقول أحمر إذن؟»

وجاءته الإجابة: «ليس الأحمر بالكلمة المناسبة. لقد كان الطاعون قرمزيًّا، كان الوجه والجسد بأكمله يتحوَّل إلى اللون القرمزي في غضون ساعةٍ واحدة. أتظنُّني لا أعرف؟ أتظنُّني لم أرَ القدْر الكافي منه؟ وأنا أقول لك إنه قرمزي؛ لأنه ... حسنًا، لأنه كان قرمزيًّا؛ فما من كلمة أخرى لوصفِه.»

تمتم هير-ليب بعناد: «وصفُه بالأحمر هو الأنسَب في رأيي. إنَّ أبي يصف الأحمر بأنه أحمر، ولا بدَّ أنه يعرف هو أيضًا. إنه يقول إنَّ الجميع قد ماتوا بسبب «الطاعون الأحمر».»

أجاب الجدُّ بحدَّة: «إنَّ أباك رجلٌ من العامَّة، وقد كان أبوه أيضًا رجلًا من العامَّة. أتظنُّني لا أعرف أصل قبيلة الشوفير؟ لقد كان جدُّك سائقًا خاصًّا، كان خادمًا ولم يتلقَّ أي قدر من التعليم. لقد كان يعمل لدى أشخاصٍ آخرين. غير أنَّ جدَّتك كانت من أصلٍ طيب؛ كلُّ ما هنالك أنَّ أبناءها لم يكونوا على شاكلتها. أتظنُّني لا أذكُر المرة الأولى التي التقيتُهم فيها، حين كانوا يصطادون السمك من بحيرة تميسكال؟»

سأل إدوين: «وما التعليم؟»

تحدَّث هير-ليب ساخرًا: «أنْ تقول قرمزيًّا بدلًا من أن تقول أحمر.» ثم عاد إلى الهجوم على الجدِّ قائلًا: «لقد أخبرَني أبي بما أخبرَه به أبوه قبل أن يموت، وقال إنَّ زوجتك كانت من قبيلة سانتا روزان، وأنها لم تكن ذات شأنٍ. قال إنها كانت «نادلة» قبل الطاعون الأحمر، غير أنَّني لا أعرف ماذا تكون النادلة. أخبِرْني أنت يا إدوين.»

لكنَّ إدوين هزَّ رأسَه في إشارة لعدَم عِلمه بالأمر.

صدَّق الجدُّ على كلامه قائلًا: «هذا صحيحٌ، لقد كانت نادلة في مطعم، لكنها كانت امرأةً جيدة، وكانت أمُّك ابنتَها. لقد كان عدد النساء قليلًا للغاية بعد الطاعون. إنها الوحيدة التي استطعتُ أن أتَّخِذها زوجةً لي، حتى إن كانت نادلة مِثلما يقول أبوك عنها. غير أنه ليس من الجيد أن نتحدَّث عن أسلافنا بهذه الطريقة.»

«أبي يقول إنَّ زوجة أول أفراد قبيلة الشوفير كانت ليدي.»

تساءل هو-هو: «وما معنى ليدي؟»

أجاب هير-ليب بسرعة: «الليدي هي زوجة الشوفير.»

راح العجوز يشرَح لهم بالتفصيل: «كان بيل هو أول أفراد قبيلة الشوفير، وقد كان رجلًا من العامَّة، لكنَّ زوجته كانت ليدي، لقد كانت سيدة عظيمة. قبل الطاعون القرمزي، كانت زوجة فان ووردن الذي كان رئيسًا لمجلس الأقطاب الصناعية، وأحد الرؤساء العديدين الذين حكَموا أمريكا. لقد كانت ثروته تُقدَّر بمليارٍ وثمانمائة مليون دولار؛

والدولار عملة كتلك العملة التي تحملها في جرابك يا إدوين. ثم حلَّ الطاعون القرمزي، وأصبحت زوجته، زوجة بيل أول أفراد قبيلة الشوفير، وقد اعتاد على ضربِها أيضًا. لقد رأيتُ ذلك بنفسي.»

كان هو-هو يرقُد على بطنه وينبِش بفتورٍ بأصابع قدمَيه في الرمال، لكنه صاح ثُم بدأ يستكشف الأمر؛ ففحص ظفر إصبع قدمه أولًا، ثم الحفرة التي نبشَها به. انضمَّ إليه الصبيَّان الآخران، وراحوا جميعًا يُنقِّبون في الرمال سريعًا بأيديهم إلى أن كشفوا عن ثلاثة هياكل عظمية كانت هناك. كان اثنان من هذه الهياكل لشخصَين بالِغَين، أما الثالث فقد كان لطفلٍ غير مُكتمل النمو. تزحزح العجوز على الأرض، وأنعَم النظر فيما وجدوه.

تحدَّث مُعلنًا: «إنهم من ضحايا الطاعون؛ فتلك هي الحال التي كانوا يموتون عليها في الأيام الأخيرة. لا بدَّ أنهم كانوا أُسرة راحوا يَهربون من العدوى؛ فماتوا هنا على شاطئ كليف هاوس. إنهم ... ماذا تفعل يا إدوين؟»

طرح العجوز السؤال بنبرةٍ تنمُّ عن ارتباكٍ مفاجئ، عندما بدأ إدوين في الطرْق على الأسنان الموجودة في واحدةٍ من الجماجم باستخدام ظَهر سكين الصيد، وإخراجها من الفكَّين.

وقد أجاب إدوين: «سأنظُمُها عقدًا.»

أخذ الصِّبية الثلاثة يعملون بكدٍ على نظْم ذلك العقد، وتصاعدتْ أصوات الدقِّ والطَّرْق التي راح الجدُّ يُثرثر خلالها دونما انتباهٍ من أحد.

«إنكم همجيُّون حقًّا. لقد بدأتُم بالفعل في ارتداء الأسنان البشرية، وفي جيل آخر، ستبدءون في ثَقْب أنوفكم وآذانكم وترتدون الحُلِيَّ من العظام والأصداف. أعرف هذا. إنَّ النوع البشري محكوم عليه بأن يغوص مرةً أخرى إلى ما هو أبعدُ فأبعد. البدائية قبل أن يبدأ مرة أخرى في صعوده الدَّامي نحوَ الحضارة. حين يزداد عددُنا ونشعُر بحاجتنا إلى المساحة، فسوف يقتُل بعضُنا بعضًا. أعتقد أنكم بعد ذلك سترتَدُون خصلات الشعر البشري على خصوركم، مثلما بدأتَ أنت بالفعل يا إدوين، يا ألطف أحفادي، بارتداء ذَيل الخنزير الكريه هذا. ارمِهِ بعيدًا يا إدوين! ارمِهِ بعيدًا يا ولدي!»

علَّقَ هير-ليب قائلًا: «ما أكثر هذَيان هذا العجوز.» وحين استخرجوا الأسنان كلها، بدءوا في محاولة تقسيمها بينهم بالتَّساوي.

كانت حركاتهم سريعةً للغاية ومُباغتة، وكان حديثهم في المناقشة الحامية التي دارت بشأن تقسيم تشكيلة الأسنان هذرًا بكلِّ ما تحمِله الكلمة من معنًى. فقد كانوا يتحدَّثون

بكلماتٍ تتكوَّن من مقطعٍ واحد، وجُمَل قصيرة مُتقطعة هي أقرب إلى الرطانة منها إلى اللغة. وبالرغم من ذلك، كانت تحمل في طيَّاتها بعض الملامح التي تدلُّ على وجود بناءٍ نَحْوي ما، وظهرت فيها آثار تدلُّ على اقترانها بثقافةٍ أعلى. حتى حديث الجدِّ كان مَعيبًا للغاية، حتى إنه كان يبدو محْضَ هراءٍ للقارئ، لو نُقِل حرفيًّا كما قاله بالضبط. غير أنَّ تلك كانت لغته عند حديثه مع الصِّبية فقط.

أما حين كان يصِل إلى الذروة في الثرثرة إلى نفسه، فقد كانت لغته تتطهَّر ببطءٍ إلى أن تُصبح لغة إنجليزية نقيَّة. كانت الجُمَل تزداد طولًا، وكانت طريقة نُطقِها تتميز بالإيقاع والسلاسة التي تُذكِّر بمنصة المحاضرات.

حين انتهى أمر الأسنان نهايةً مُرضية، تحدث هير-ليب سائلًا: «أخبِرْنا عن الطاعون الأحمر أيُّها الجدُّ.»

علَّق إدوين مُصوِّبًا: «الطاعون القرمزي.»

واصل هير-ليب حديثه: «ولا تُحدِّثنا بهذه اللهجة الغريبة. حدِّثنا حديثًا مفهومًا أيُّها الجدُّ، مثلما يتحدَّث من ينتمون إلى قبيلة سانتا روزان. فهم لا يتحدَّثون بطريقتِك هذه.»

الفصل الثاني

أبدى العجوزُ سُرورًا لِمثل هذا الطلب؛ فتنحنح وبدأ في الحديث.

«قبل عشرين أو ثلاثين عامًا، كانت قِصَّتي تلقى إقبالًا كبيرًا، أما في هذه الأيام، فلا أحدَ يبدو مُهتمًّا ...»

صاح هير-ليب مُحتدًّا: «ها أنت ذا مُجدَّدًا! كُفَّ عن هذا الكلام الغريب وتحدَّث بكلامٍ مفهوم. ما معنى «مُهتم»؟ إنك تتحدَّث كطفلٍ لم يتعلم الكلام.»

تحدَّث إليه إدوين مُنبِّهًا: «دعْه وشأنه، وإلا فسيغضَب ولن يتحدَّث على الإطلاق. تجاهل الأجزاء الغريبة. سوف نفهم بعض ما يُخبرنا به.»

كان العجوز قد بدأ بالفعل في الغمغمة بشأن عدَم احترام كبار السن، وارتداد جميع البشر إلى الهمجية بعد أن سقطوا من علياء الحضارة إلى تلك الحالة البدائية؛ فشجَّعَه هو-هو على الحديث قائلًا: «أخبِرْنا بالقصَّة أيُّها الجدُّ.»

وبدأت القصة.

«كان هناك الكثير جدًّا من البشر في تلك الأيام. سان فرانسيسكو وحدَها كان بها أربعة ملايين ...»

قاطعَهُ إدوين قائلًا: «ما هي الملايين؟»

نظر إليه الجدُّ بعطفٍ وقال: «إنني أعرِف أنك لا تستطيع العدَّ بعْدَ العشرة؛ لذا سوف أُخبرك. ارفع يدَيك الاثنتَين. أنت تملك فيهما عشرة أصابع. حسنًا، الآن سوف آخُذ هذه الحبَّة من الرمل، أمسِكْها أنت يا هو-هو.» وضَعَ حبَّة الرمل في راحة الفتى وواصل حديثَه قائلًا: «الآن حبَّة الرمل هذه تُمثل أصابع إدوين العشرة. سأضيف حبَّة رملٍ أخرى، وهذا معناه أني أضيف عشرة أصابع أخرى، ثم أُضيف حبة رملٍ ثالثة، ثم حبَّة رابعة، ثم حبة

خامسة، إلى أن يُصبح عدد حبَّات الرمل مُساويًا لعدد أصابع إدوين العشرة. وهذا يُساوي ما سأُطلق عليه مائة. تذكروا هذه الكلمة: مائة. والآن، سأضع هذه الحصاة في يدِ هير-ليب، وهي تُمثل عشر حبَّاتٍ من الرمل أو عشر عشراتٍ من الأصابع أو مائة إصبع. أضع عشر حصوات، وهي تُمثل ألف إصبع. آخذُ صدفةَ محار، وهي تُمثل عشر حصوات أو مائة حبَّةٍ من الرمل أو ألف إصبع ...» وهكذا بالكثير من الجُهد والكثير من التكرار، حاول أن يُشكِّل في عقولهم تصوُّرًا أوليًّا للأعداد. ومع زيادة الكميات، كان يطلب من الصِّبية أن يحملوا كمياتٍ مختلفة في أيديهم. وعند تمثيل الكميات الأكبر، كان يضع الرموز على قطعةٍ من الخشب الطافي، وقد واجه بعض الصعوبة في إيجاد هذه الرموز؛ فاضطُرَّ إلى استخدام الأسنان المُستخرجة من الجماجم لتمثيل الملايين، وأصداف السلطعون لتمثيل المليارات. وقد توقف عند هذا الحد؛ إذ بدأت علامات الإرهاق تظهر على الصِّبية.

كان هناك أربعة ملايين من البشر يعيشون في سان فرانسيسكو، أي أربعة أسنان.»

راحت عيون الصبية تجُول من الأسنان ومن يدٍ إلى يد، ومن الحصى وحبَّات الرمال إلى أصابع إدوين. وهي تعود لتجُول مرة أخرى في المجموعة بترتيبٍ تصاعُدي في محاولةٍ لاستيعاب مثل هذه الأعداد التي لا يمكن تخيُّلها.

وأخيرًا جازف إدوين قائلًا: «ذلك عددٌ كبير من البشر أيُّها الجدُّ.»

«مثل هذه الرمال الموجودة على الشاطئ هنا، كل حبَّة من الرمل قد تكون رجلًا أو امرأة أو طفلًا. أجل يا ولدي، كل هؤلاء البشر كانوا يعيشون هنا في سان فرانسيسكو. وفي وقتٍ ما، كان جميع البشر هؤلاء يأتون إلى هذا الشاطئ؛ فكان عدد البشر يزيد عن عدد حبَّات الرمال. كانوا أكثر منها بكثير. وقد كانت سان فرانسيسكو مدينةً رائعة. وعلى الجهة المُقابلة من الخليج، حيث خيَّمنا العام الماضي، كان يعيش عددٌ أكبر من البشر في تلك المدينة التي تبعُد كثيرًا عن بوينت ريتشموند، على الأرض المُستوية وعلى التلال، وصولًا إلى سان ليندرو، كانت تمتدُّ تلك المدينة العظيمة التي يعيش بها سبعة ملايين من البشر. سبعة أسنان ... هكذا، أي سبعة ملايين.»

ومرةً أخرى راحَتْ عيون الصِّبية تجُول صعودًا وهبوطًا من أصابع إدوين إلى الأسنان الموجودة على قطعة الخشب.

«كان العالمُ مليئًا بالبشر. فقد بلغ التعداد السُّكاني في عام ٢٠١٠ ثمانية مليارات نسمة في العالم بأكمله؛ أي ثمانية من أصداف السلطعون، أجل ثمانية مليارات. لم تكن الحال كما هي عليه اليوم. لقد كان البشر يعرفون أكثر مِنَّا بكثيرٍ عن كيفية الحصول على

الغذاء. وكلما زاد الغذاء، زاد عدد البشر. في العام ١٨٠٠، كان يقطن أوروبا وحدَها مائة وسبعون ألف نسمة. وبعد ذلك بحبَّة واحدة من الرمل يا هو-هو، أي بعد مائة عام، كان يقطن أوروبا خمسمائة مليون نسمة، أي خمس حبَّاتٍ من الرَّمل يا بُني، زائد هذه السِّنِّ أيضًا. إنَّ هذا يوضح مدى سهولة الحصول على الغذاء في ذلك الوقت، والزيادة الكبيرة في عدد البشر. وفي عام ٢٠٠٠، كان هناك مليار وخمسمائة مليون نسمة في أوروبا. وقد كان الأمر كذلك في بقية أنحاء العالم. ثمانيةٌ من أصداف السلطعون، أجل، كان هناك ثمانية مليارات نسمة يعيشون في العالم حين بدأ الطاعون القرمزي.

كنتُ شابًّا في السابعة والعشرين حين حلَّ الطاعون، وكنتُ أعيش على الجانب الآخر من خليج سان فرانسيسكو، في بيركلي. أتتذكَّر يا إدوين تلك المنازل الحجرية الكبيرة التي رأيناها حين هبطنا التلال من كونترا كوستا؟ ذلك هو المكان الذي كنتُ أعيش فيه، في تلك المنازل الحجرية. وكنتُ أستاذًا في الأدب الإنجليزي.»

لقد كان الجزء الأكبر من هذا الحديث مُعقدًا بالنسبة إلى الصِّبية، لكنهم كانوا يُجاهدون من أجل أن يفهَموا حكاية الماضي وإنْ كان ذلك بصورةٍ ضبابية مُشوَّشة.

سأل هير-ليب: «فيمَ كانت تُستخدَم المنازلُ الحجرية؟»

«أتتذكَّر حين علَّمك أبوك السباحة؟» أومأ الصبيُّ برأسه. «حسنًا، في جامعة كاليفورنيا — هذا هو الاسم الذي كُنَّا نُطلقه على هذه المنازل — كُنَّا نُعلِّم الفتيان والفتيات التفكير، مثلما علَّمْتُكم للتوِّ بالرمال والحصى والأصداف، عددَ البشر الذين كانوا يعيشون في تلك الأيام. لقد كان هناك الكثير جدًّا مما نُعلِّمه. هؤلاءُ الفتيان والفتيات، كُنا نُسمِّيهم طلَّابًا. وقد كان لدَينا غُرف كبيرة نُعلِّمهم فيها. كنتُ أتحدث إلى أربعين طالبًا أو خمسين في كلِّ مرة، مثلما أتحدَّث إليكم الآن. وكنتُ أحدثهم عن الكُتب التي كتبَها آخرون في عصورٍ سبقَتْ عصرهم، وحتى في عصرهم في بعض الأحيان ...»

تساءل هو-هو: «أكان هذا كلَّ ما كنتَ تفعله؟ تتحدث وتتحدث وتتحدث فحسب؟ مَنْ كان يصطاد لك اللحم؟ ويحلب الماعز؟ ويصيد الأسماك؟»

«هذا سؤالٌ وجيه يا هو-هو، سؤالٌ وجيه. مثلما قلتُ لكم، لقد كان الحصول على الطعام سهلًا للغاية في هذه الأيام. لقد كُنا حُكماءَ جدًّا. عددٌ قليل من البشر كانوا يُوفِّرون الطعام لعددٍ كبير منهم، أما البشر الآخرون، فقد كانوا يفعلون أشياء أخرى. لقد كنتُ أتحدَّث مثلما تقول، كنتُ أتحدث طوال الوقت. ولهذا؛ كنتُ أحصل على الطعام، الكثير من الطعام، الطعام الجيد، الطعام الجميل، الطعام الذي لم أتذوَّقْه على مدى سِتِّين عامًا،



«كنت أستاذًا في الأدب الإنجليزي.»

ولن أتذوَّقَه مرةً أخرى. أحيانًا أُفكِّر أنَّ الإنجاز الأروع الذي حقَّقتْهُ حضارتنا الضخمة، هو الطعام؛ وفْرتُه التي لا تُصدَّق، وتنوُّعُه غير المحدود، ومذاقه الرائع. آهٍ يا أحفادي! لقد كانت الحياة حياةً بحقٍّ في تلك الأيام، حين كان لدَينا تلك الأشياء الرائعة لنأكُلها.»

كان ذلك الحديث أكبر من قُدرة الصبية على الاستيعاب، وهم لم ينتبهوا كثيرًا للكلمات ولا للأفكار باعتبارها محْض شرودٍ من العجوز الخَرِف في القصة.

«كان هؤلاءُ الأشخاص الذين يحصُلون لنا على الطعام يُسمَّون «الرجال الأحرار.» وقد كانت تلك مُزحة؛ فنحن — الطبقات الحاكمة — كُنَّا نمتلك الأرض بأكملها والآلات

وكلَّ شيء. هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يحصُلون على الطعام عبيدٌ لنا. كُنَّا نأخذ كلَّ الطعام الذي يحصلون عليه تقريبًا، ولا نترُك لهم إلا القليل جدًّا ليأكلوه ويتمكنوا من العمل ويُحضروا لنا المزيد من الطعام …»

تحدَّث هير-ليب: «أما أنا، فقد كنتُ سأذهب إلى الغابة وأحضر الطعام لنفسي، وإذا حاول أحدُهم أن يأخذه منِّي، كنتُ سأقتله.»

ضحكَ العجوز.

«ألم أقُل لك إننا — أفراد الطبقة الحاكمة — كنا نمتلك الأرض كلَّها والغابة كلَّها وكلَّ شيءٍ؟ وفي حال أخفقَ أيٌّ من جالبي الطعام في إحضاره لنا، كُنا نُعاقبه أو نضطرُّه إلى الموت جُوعًا. وقد كان عدد قليل للغاية هم الذين يفعلون ذلك. فقد كانوا يُفضِّلون أن يُحضروا لنا الطعام ويصنعوا لنا الملابس، ويُهيِّئوا لنا ألفًا — أي صدفة محارٍ يا هو-هو — من المباهج والرَّغبات. وقد كنتُ أنا في تلك الأيام، البروفيسور سميث، البروفيسور جيمس هوارد سميث. وقد كانت مُحاضراتي شهيرةً للغاية، بمعنى أنَّ الكثير جدًّا من الفتيان والفتيات كانوا يُحبُّون أن يستمعوا إليَّ وأنا أُحدثهم عن الكُتب التي كتبَها آخرون.

كنتُ سعيدًا للغاية، وكان لديَّ الكثيرُ من الأشياء الجميلة التي آكُلها. وقد كانت يدايَ ناعمتَين لأنني لم أكن أعمل بهما، وكان جسدي نظيفًا بأكمله ومُغطًّى بأنعم الثياب …»

وراحَ ينظُر إلى جِلد الماعز الجرِب الذي يرتديه باشمئزاز.

«لم نكن نرتدي مثل هذه الأشياء في تلك الأيام. حتى العبيد كانوا يرتدون ثيابًا أفضل. وقد كُنا في غاية النظافة. كُنا نغسل وجوهنا وأيدينا عدة مراتٍ في اليوم الواحد. أنتم أيُّها الصبيان لا تغتسلون أبدًا إلا أنْ تسقطوا في المياه أو تذهبوا للسباحة.»

ردَّ عليه هو-هو: «وكذلك الحال بالنسبة إليك أيُّها الجَد.»

«أعرفُ، أعرفُ، إنني عجوزٌ قذِر، لكنَّ الزمن قد تغيَّر. لا أحدَ يغتسل هذه الأيام؛ فلم تعُد تتوافَر الأدوات التي تُستخدَم لذلك الغرَض. إنني لم أرَ قطعةً من الصابون منذ سِتِّين عامًا.

إنكم لا تعرفون ما هو الصابون، وأنا لن أُخبركم؛ لأنني أحكي لكم قصَّة الطاعون القرمزي. إنكم تعرفون الإعياء، لقد كنا نحن نُسمِّيه بالمرَض. والكثير من الأمراض كان سببُه ما كُنا نُطلق عليه الجراثيم. تذكَّروا هذه الكلمة: الجراثيم. الجرثومة هي شيءٌ صغير للغاية. إنها تُشبِه قُراد الغابة، ذلك الذي تجدونه في الكلاب في الربيع حين تركضُ في الغابة، لكنَّ الجراثيم صغيرةٌ للغاية. إنها صغيرة جدًّا حتى إنكم لا تستطيعون رؤيتها …»



انفجر هو-هو في الضحك.

«أنت رجلٌ غريبٌ أيُّها الجدُّ، وتتحدَّث عن أشياء لا تستطيع رؤيتها. إذا كنتَ لا تستطيع رؤيتها، فكيف تعرف أنها موجودة؟ هذا ما أريد معرفته. كيف تعرِف أيَّ شيءٍ لا تستطيع رؤيته؟»

«هذا سؤالٌ جيِّد يا هو-هو، سؤالٌ جيد للغاية. لكننا قد رأيْنا بعضها بالفعل. كان لدَينا أدواتٌ نُسمِّيها بالمجاهر والمجاهر الفائقة، وكنَّا نضعها على عيوننا وننظر من خلالها حتى نرى الأشياء أكبر ممَّا هي عليه بالفعل، وقد كان هناك الكثير جدًّا من الأشياء التي لم نكن نستطيع رؤيتها على الإطلاق بدون المجاهر. كانت أفضل أنواع المجاهر تجعل

الجرثومة تبدو وكأنها أكبر من حجمها أربعين ألف مرة. صدفة المحار تُمثل ألف أصبعٍ مثل أصابع إدوين، نأخذ أربعين صدفةً منها، وبهذا يُصبح لدَينا عدد المرَّات التي كُنا نُكبِّر بها الجرثومة تحت المجهر. بعد ذلك، أصبح لدَينا طُرق أخرى؛ فمن خلال ما كُنا نُسمِّيه بالصُّور المُتحركة، كنا نستطيع أن نجعل هذه الجرثومة التي أصبحت أكبر من حجمها الطبيعي أربعين ألف مرة، أكبر وأكبر بكثيرٍ عن طريق تكبيرها للآلاف والآلاف من المرات. وبهذا، استطعْنا أن نرى جميع الأشياء التي لم تكن عيوننا وحدَها تستطيع أن تراها. خذوا حبَّةً من الرمل، وقَسِّمُوها إلى عشرة أجزاءٍ. وخذوا من هذه الأجزاء العشرة جُزءًا وقَسِّموه إلى عشرة أجزاء، ثم خذوا من تلك الأجزاء جزءًا وقَسِّموه إلى عشرة أجزاء، ثم خذوا من تلك الأجزاء جزءًا وقَسِّموه إلى عشرة أجزاء، ثم خذوا من تلك الأجزاء جزءًا وقَسِّموه إلى عشرة أجزاء، ثم خذوا من تلك الأجزاء جزءًا وقَسِّموه إلى عشرة أجزاء، وهكذا طوال اليوم، وربما بحلول غروب الشمس، سيكون لدَيكم جزءٌ صغير في حجم الجرثومة.» كان التشكُّك يبدو على الصبيان بوضوح. راح هير-ليب يضحك ساخرًا، وراح هو-هو يضحك ضحكاتٍ مكتومة، إلى أن لكزَهُما إدوين كي يصمُتا.

«إنَّ القُراد يمصُّ دمَ الكلب، لكن لأنَّ الجرثومة صغيرة للغاية؛ فهي تدخُل إلى الدم مباشرةً، وهناك يُصبح لديها الكثير من الأطفال. في تلك الأيام، كان يمكن أن يدخل عددٌ كبير منها، كمليارٍ مثلًا، أو صدفة سلطعون، إلى جسم الإنسان، أجل كان يمكن أن يدخل منها إلى جسم الإنسان مقدار ما تُمثِّله صدفة سلطعون. كُنا نُسمِّي الجراثيم بالكائنات الدقيقة. وحين كان يدخل منها إلى جسم الإنسان بضعة ملايين أو مليار من تلك الجراثيم، وتنتشر في دمه كله، كان هذا الإنسان يمرَض. كانت هذه الجراثيم مرضًا. وكان يُوجَد منها الكثير جدًّا من الأنواع المختلفة، وكانت هذه الأنواع المختلفة أكثر من هذه الرمال الموجودة على الشاطئ. ونحن لم نعرِف من هذه الأنواع إلا العددَ القليل. فقد كان عالَم الكائنات الدقيقة غير مَرئي، عالَم لم نكن نستطيع رؤيته، ولم نعرف عنه إلا القليل جدًّا. غير أننا كنا نعرف بعض الشيء. كان هناك بكتيريا «العصوية الجمرية»، وبكتيريا «المكوَّرة الدقيقة»، و«البكتيريا الأليفة للحرارة»، و«بكتيريا اللاكتيك»، وتلك الأخيرة هي التي تجعل حليب الماعز يصير حامضيًّا حتى إلى يومنا هذا يا هير-ليب. وكان هناك أيضًا عددٌ لا حصر له من «الفطريات المُنشقة». وكان هناك الكثير غيرها من ...»

اندفعَ العجوز في خطبةٍ عن الجراثيم وطبيعتها مُستخدمًا كلماتٍ وعبارات، لا يُضاهيها شيءٌ في طولها أو افتقارها إلى المعنى، حتى إنَّ الصبية نظروا إلى بعضهم بعضًا في تجهُّم، واتجهوا ببصرِهم إلى المُحيط المهجور حتى نسُوا أنَّ العجوز كان يُثرثِر.

وأخيرًا تحدَّث إدوين: «لكن ماذا عن الطاعون القرمزي أيُّها الجدُّ.»

تنبَّه الجَدُّ إلى نفسه، وكأنه انتشل نفسه فجأةً من أمام منصَّةٍ في قاعة محاضراتٍ كان يُحاضر فيها جمهورًا من عالمٍ آخر حول أحدث النظريات، التي مضى عليها ستُّون عامًا، عن الجراثيم وأمراضها.

«أجل، أجل يا إدوين. لقد نسيت. إنَّ ذكريات الماضي تتملكني بقوَّة في بعض الأحيان وأنسى أنني عجوزٌ قذِر أرتدي جلد الماعز وأترحَّل مع أحفادي الهمجيِّين الذين يرعَون الماعز في البرِّية البدائية. تتلاشى الأنظمة الزائلة كما يتلاشى الزَّبَد، وهكذا تلاشَتْ حضارتنا المجيدة الضخمة. لقد أصبحتُ عجوزًا مُرهقًا. أصبحتُ أنتمي إلى قبيلة سانتا روزان. لقد تزوَّجتُ امرأةً من هذه القبيلة. وتزوَّج أبنائي وبناتي من نساء قبيلة الشوفير، ومن قبيلة سَكْرمنتو، ومن قبيلة بالو-ألتو. أنت يا هير-ليب تنتمي إلى قبيلة شوفير. وأنت يا إدوين تنتمي إلى قبيلة سَكْرمنتو. وأنت يا هو-هو تنتمي إلى قبيلة بالو-ألتو. إنَّ قبيلتك تتَّخِذ اسمَها من مدينةٍ كانت تقع بالقُرب من مؤسسةٍ تعليمية عظيمة أخرى. كانت تلك المؤسسة تُعرَف باسم جامعة ستانفورد. أجل، إنني أتذكر الآن بوضوحٍ تام. لقد كنتُ أقصُّ عليكم قصة الطاعون القرمزي. إلى أين وصلتُ في قصتي؟»

أسرع إدوين بالإجابة: «لقد كنتَ تُخبرنا عن الجراثيم، تلك الأشياءُ التي لا يمكن رؤيتها، لكنها تصيب البشر بالأمراض.»

«أجل، هذا هو ما توقفتُ عنده. لم يكن البشر يلاحِظون في البداية حين يدخل عددٌ قليل من الجراثيم إلى أجسادهم. غير أنَّ كل جرثومة كانت تنقسِم إلى نصفَين، وتصبح جرثومتَين، وقد كانت تظلُّ تفعل ذلك بسرعةٍ هائلة حتى يبلغ عددُها في الجسم عدة ملايين في وقتٍ وجيز. وعندها، يمرض الإنسان، ويُسمَّى هذا المرض باسم الجرثومة التي دخلت إلى جسمه. فقد تكون الحصبة أو الإنفلونزا أو الحُمَّى الصفراء، أو غيرها من آلاف أنواع الأمراض.»

«الأمر الغريب بشأن هذه الجراثيم هو أنَّ هناك دائمًا العديد من الأنواع الجديدة منها التي تظهر لتعيش في أجسام البشر. قبل عددٍ كبير للغاية من السِّنين، حين لم يكن في العالم سوى عددٍ قليل من البشر، لم يكن هناك سوى عددٍ قليل من الأمراض. ومع زيادة عدد البشر، ومع معيشتهم بالقُرب من بعضهم بعضًا في المدن والحضارات الكبيرة، ظهرَتْ أنواعٌ جديدة من الأمراض؛ إذ دخلت إلى أجسامهم أنواعٌ جديدة من الجراثيم. ومِن ثَمَّ، قُتل الملايين والمليارات من البشر. وكلما زاد عدد البشر الذين يعيشون في البُقعة نفسها،

أصبحت الأمراضُ التي تظهر أشدَّ فتكًا. قبل الزمان الذي عشتُ فيه بوقتٍ طويل، في العصور الوسطى، ظهر الطاعون الأسود الذي اجتاح أوروبا. لقد اجتاحها مراتٍ عديدة. وهناك أيضًا السُّلُّ الذي كان يدخل أجسام البشر في الأماكن التي يتجمَّعون فيها بكثرة. وقبل الزمان الذي عشتُ فيه بمائة عام، كان هناك الطاعون الدبلي. وفي أفريقيا، كان هناك مرض النوم. لقد كافح علماء البكتيريا كلَّ هذه الأمراض وقضَوا عليها، مثلما تفعلون أنتم أيُّها الصبية حين تدفعون الذئاب عن الماعز، أو تقتلون البَعوض الذي يُهاجمكم. كان علماءُ البكتيريا ...»

قاطعه إدوين: «لكن أيُّها الجدُّ، ما هذا الذي لا أدرى ما اسمه؟»

«أنت يا إدوين تعمل راعيًا للماعز. مهمَّتك هي أن تُراقب الماعز، وأنت تعرف الكثير عنها. عالِم البكتيريا يراقِب الجراثيم. تلك هي مهمَّته، وهو يعرِف الكثير عنها. لذا مِثلما كنتُ أقول، كان علماء البكتيريا يُكافحون الجراثيم، وقد قضَوا عليها في بعض الأحيان. كان هناك مرضٌ فظيع يُسمَّى الجُذام، وقبل أن أُولد بمائة عام، اكتشف العلماءُ جرثومة الجُذام، وعرفوا كلَّ شيءٍ عنها، والتقطوا لها صُورًا. لقد رأيتُ هذه الصور. غير أنهم لم يتوصَّلوا إلى طريقةٍ لقتلها. وفي عام ١٩٨٤، تفشَّى مرض طاعون بانتوبلاست في دولة تُسمَّى البرازيل، وقتل الملايين من البشر. غير أنَّ علماء البكتيريا اكتشفوا الجرثومة المُسبِّبة لهذا المرض، وتوصَّلوا إلى طريقةٍ لقتلها حتى لا يستمرَّ المرض. لقد صنعوا ما كانوا يُسمُّونه بالمَصْل، وكانوا يُدخلونه إلى جسم الإنسان فيقتُل جراثيم بانتوبلاست دون أن يقتُل الإنسان. وفي عام ١٩١٠، ظهر مرض الحُصاف، والديدان الشصية أيضًا، لكنَّ علماء البكتيريا قضَوا على هذين المرضَين بسهولة. أما في عام ١٩٤٧، فقد ظهر مرضٌ جديد لم يُرَ من قبل. كان يدخل إلى أجساد الرُّضَّع الذين يبلغون من العمر عشرة شهور أو أقل، وكان يجعلهم غير قادِرين على تحريك أقدامهم وأيديهم أو حتى تناول الطعام أو فعل أيِّ شيء. وقد استغرق الأمر من علماء البكتيريا أحد عشر عامًا إلى أن توصَّلوا إلى تلك الجرثومة المُحدَّدة، ونجحوا في إنقاذ الأطفال.

بالرغم من كلِّ هذه الأمراض، وبالرغم من كل الأمراض الجديدة التي استمرَّت في الظهور، كان عدد البشر في العالم يزداد أكثر فأكثر. كان ذلك بسبب سهولة الحصول على الطعام. فكلما زادت سهولة الحصول على الطعام، ازداد عدد البشر، وازداد تكدُّسُهم في منطقة واحدة، وازداد عدد أنواع الجراثيم الجديدة التي تصير أمراضًا. لقد كانت هناك تحذيرات. فمنذ عام ١٩٢٩، أخبر سولدرفتسكي علماءَ البكتيريا أنهم لا يملكون أيَّ ضمانةٍ



أفصح قائلًا: «أيُّها الجدُّ، إنك تُصيبني بالغثيان بثرثرتك هذه.»

حيال مرضٍ جديد سيكون أشدَّ فتكًا من أي مرض عرفوه بآلاف المرات، وسيقتل مئات الملايين من البشر، أو حتى المليارات منهم. كما ترَون، ظلَّ عالَم الكائنات الدقيقة لُغزًا حتى النهاية. لقد كانوا يعرفون بوجود ذلك العالم، وأنَّه بين الحين والآخر، تظهر جيوشٌ من الجراثيم الجديدة لتقتُل البشر.

هذا هو كلُّ ما كانوا يعرفونه بشأنه. كلُّ ما كانوا يعرفونه أنه في عالَم الكائنات الدقيقة غير المرئي هذا، ربما تُوجَد الكثير من أنواع الجراثيم المُختلفة التي قد يصِل عددُها إلى عدد حبات الرمال الموجودة على هذا الشاطئ. وفي ذلك العالَم غير المرئي نفسه أيضًا،

من المُرجَّح أن تكون قد ظهرتْ أنواعٌ جديدة من الجراثيم. وربما تكون الحياة قد نشأت هناك: «الخصوبة السحيقة» مثلما كان يُسمِّيها سولدرفتسكي مُستخدمًا كلمات الرجال الذين كانوا قد كتبوا من قبله ...»

وعند هذه النقطة، هبَّ هير-ليب واقفًا على قدَميه، وعلى وجهه علامات ازدراءٍ عظيم.

وجَّه حديثه إلى الجدِّ مُعلنًا: «أيُّها الجدُّ، إنك تُصيبني بالغثَيان بثرثرتك هذه. لماذا لا تُخبرنا عن الطاعون الأحمر؟ إذا لم تكن ستُخبرنا، فأعلِمْنا بذلك، كي نعود إلى المُخيَّم.»

نظر إليه العجوزُ وبدأ يبكي في صمتٍ. انحدرَتِ الدموع التي تنمُّ عن عجزٍ وضعفٍ على خدَّيه، وتجلَّى وهَنُ أعوامه الثمانين والسبعة بأكمله في سيمائه المحزونة.

تحدَّث إدوين ناصحًا ومُهدئًا: «إنَّ الجدَّ على ما يُرام. إنه سيُخبرنا عن الطاعون القرمزي الآن، أليس كذلك أيُّها الجَدُّ؟ إنه سيُخبرنا عنه حالًا. اجلس يا «هير-ليب». أكمِل أيُّها الجَدُّ.»

الفصل الثالث

مسحَ العجوزُ دموعه بيديه المُتَّسِختَين واستكمل القصةَ بصوتٍ مُرتجف حادٍّ سرعان ما اكتسبَ قوةً مع اندماجه أكثر فيما يرويه.

«حَلَّ الطاعون في صيف عام ٢٠١٣. حينها، كنتُ أبلغ من العمر سبعةً وعشرين عامًا. أتذكَّر الأمر جيدًا. كانت المراسلات اللاسلكية ...»

بصَقَ هير-ليب بصوتٍ عالٍ مُعبِّرًا عن تأفُّفه، وأسرع الجَدُّ بإصلاح الموقف.

«لقد كنا نتحدَّث عبر الهواء في تلك الأيام، على بُعد الآلاف والآلاف من الأميال. أتتْنا أخبارٌ تفيد بأن مرضًا غريبًا قد تفشَّى في نيويورك. كان يعيش آنذاك في تلك المدينة الأمريكية الأكثر روعةً سبعة عشر مليون نسمة. لم يُلقِ أحد بالًا لتلك الأخبار. كان الأمرُ بسيطًا؛ فلم يكن هناك سوى بضع حالات وفاة وحسب. بالرغم من ذلك، فقد بدا أنهم ماتوا بسرعةٍ كبيرة، وكانت إحدى العلامات الأولى للمرض، هي تحوُّل الوجه والجسد بأكمله إلى اللون الأحمر. في غضون أربع وعشرين ساعة، أتتِ الأخبار التي تُفيد بظهور أول حالة في شيكاغو. وفي اليوم نفسه، وبعدما أُعلن مباشرةً عن اكتشاف حالةٍ في شيكاغو، أُعلِن أنَّ لندن، المدينة الأعظم في العالم، كانت تُكافح الطاعون سرًّا لمدة أسبوعين بينما تحاول أن تتكتَّم على الخبر، أو بعبارةٍ أخرى، كانت تُراقب المنصَّات الإخبارية بحيث تحُول دون وصول نبأ ظهور الطاعون في المدينة إلى بقية العالم.

بدا الأمر خطيرًا، لكننا في كاليفورنيا، لم نكن قلِقين، مِثلنا في ذلك مِثل بقية البشر في كل مكانٍ آخر. كنا مُتأكدين من أنَّ علماءَ البكتيريا سيتوصَّلون إلى طريقةٍ للتغلُّب على هذه الجرثومة الجديدة، مثلما تغلبوا على غيرها من الجراثيم في الماضي. غير أنَّ المشكلة

كانت في السرعة المُذهلة التي كانت هذه الجرثومة تقضي بها على البشر، وكذلك حقيقة أنها قتلتْ كلَّ جسمٍ بشري قد دخلتْه. فلم يُشفَ أحدٌ منها قط. لقد عرفنا الكوليرا الآسيوية في الماضي، وقد كان من الممكن أن تتناول العشاءَ مع رجلٍ سليم في المساء، ثم تستيقظ باكرًا في الصباح لتراه محمولًا على عربة الموت بجوار نافذتك. غير أنَّ ذلك الطاعون الجديد كان أسرعَ من هذا، أسرعَ كثيرًا.



«غير أنَّ ذلك الطاعون الجديد كان أسرعَ من هذا، أسرعَ كثيرًا.»

كان البعضُ يموتون في غضون ساعةٍ من لحظة ظهور الأعراض الأولى عليهم. وعاش البعضُ لساعاتٍ عدة، ومات الكثيرون في غضون عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة من ظهور العلامات الأولى.

كان القلبُ يبدأ في الخفَقان بسرعة، وتزداد درجة حرارة الجسم. وبعد ذلك، يبدأ الطفح القرمزي في الانتشار على الوجه والجسم كالنار في الهشيم. لم يلاحظ معظم

الأشخاص الارتفاع في الحرارة ولا زيادة خفَقان القلب، وكان أول ما لاحظوه هو الطفح القرمزي. كان المريضُ يُصاب عادةً بالتشنُّجات وقتَ ظهور الطفح، لكن تلك التشنُّجات كانت تزول سريعًا، ولم تكن حادَّة. وإذا مرَّت هذه التشنُّجات وظلَّ المرءُ على قيد الحياة، فإنه كان يُصبح بعدَها هادئًا تمامًا، ولم يكن يشعُر سوى بالخدَر يزحف على جسمه سريعًا بدايةً من القدمَين. كان الكعبان يُصابان بالخدَر أولًا، ثم الساقان فالفخذان، وحين كان الخدَر يصل إلى الأعلى عند القلب، يأتي الموت. لم يكن المصابون ينامون أو يهذون، بل كانت عقولهم تظلُّ سليمةً دائمًا وهادئة حتى اللحظة التي تُصاب قلوبهم فيها بالخدَر وتتوقَّف عن الخفَقان. وثمة شيءٌ آخر غريبٌ كان يحدُث، وهو سرعة التحلل. ففور أن يموت الشخص، كان الجسد يبدو وكأنه يتفكَّك إلى أجزاء، يتفتَّت، يذوب، حتى وأنت تنظُر إليه. وقد كان ذلك من الأسباب التي أدَّت إلى انتشار الطاعون بسرعةٍ كبيرة؛ فقد كانت مليارات الجراثيم الموجودة في الجثة تنتشِر على الفور.

وبسبب هذا كلِّه، كانت احتمالية أن يتمكَّن علماءُ البكتيريا من مكافحة هذه الجراثيم محدودةً للغاية. فقد كانوا يموتون في مُختبراتهم حتى وهم يدرُسون جرثومة الطاعون القرمزي. لقد كانوا أبطالًا. فعند موتهم، كان يتقدَّم آخرون فورًا كي يحلُّوا محلَّهم. في لندن، تمكَّنوا من عزل الجرثومة لأول مرة. أُرسلتِ الأخبار برقًا إلى كل مكان. تراسك، هو اسم الرجل الذي نجح في ذلك، لكنه مات في غضون ثلاثين ساعة. وبعد ذلك، أخذت المُختبرات تُناضل من أجل التوصُّل إلى شيءٍ يقتل جراثيم الطاعون. وفشلت جميع العقاقير في ذلك. كانت المشكلة هي التوصُّل إلى عقارٍ أو مَصل يقتل الجراثيم الموجودة داخل الجسم دون أن يقتل الجسم نفسه. حاولوا مُحاربتها بالجراثيم الأخرى، أي أن يضعوا داخل جسم المريض جراثيم أخرى تكون أعداءً لجراثيم الطاعون ...»

اعترضَ هير-ليب قائلًا: «أنت لا تستطيع رؤية الجراثيم أيُّها الجَدُّ، ومع ذلك تظلُّ تُثرثر وتُثرثر بشأنها، كما لو أنها كانت شيئًا حقيقيًّا، في حين أنها ليست بشيءٍ على الإطلاق. أيُّ شيءٍ لا تستطيع رؤيته، غير موجود، هذا كلُّ ما هنالك. وأنت تتحدَّث عن محاربة أشياءٍ غير موجودة بأشياءٍ غير موجودة! لا بدَّ أنَّ البشر كلَّهم كانوا حمقى في تلك الأيام. هذا هو السببُ في أنهم قد هلكوا. إنني لن أصدق مِثل هذا الهُراء. أؤكد لك هذا.»

سرعان ما بدأ الجَدُّ في النحيب، بينما راحَ إدوين يُدافع عنه بحماس.

«استمِع إليَّ يا هير-ليب، أنت تُصدِّق بوجود الكثير من الأشياء التي لا تستطيع رؤيتها.»

هزَّ هير–ليب رأسه رافضًا.

«إنك تُصدِّق أنَّ الموتى يتجوَّلون، وأنت لم ترَ أي ميِّتٍ يتجوَّل قبل ذلك.»

«أخبرتُك أني رأيتُهم في الشتاء الماضي حين ذهبتُ لصيد الذئاب مع أبي.»

تحدَّاه إدوين قائلًا: «حسنًا، أنت تبصُق دومًا حين تعبُر مياهًا جارية.»

وجاء دفاع هير–ليب: «هذا لإبعاد الحظِّ السيئ.»

«أنت تؤمن بوجود الحظِّ السيئ؟»

«بالتأكيد.»

حسم إدوين الأمر منتصرًا: «وأنت لم ترَ الحظ السيئ أبدًا. إذن، فأنت لا تقلُّ سوءًا عن الجَدِّ وجراثيمه. فأنت تُصدِّق بوجود ما لا تراه. أكمِل أيُّها الجَدُّ.»

ظلَّ هير–ليب صامتًا بعد أن مُني بهذه الهزيمة المتعلقة بمسألةٍ غيبية، وواصلَ العجوزُ حَكيَه. وبالرغم من أنَّهم كانوا يرَون أن الجَدَّ يجب ألا يُعوِّق مسيرة أحداث هذه القصة بتفاصيله، كثيرًا ما كان يُقاطِع الصبيةُ الجدَّ بشجارهم فيما بينهم. كما ظلوا يتبادلون التفسيرات والتخمينات بصوتٍ خفيض فيما بينهم، إذ كانوا يحاولون جاهدين مُتابعة هذا العجوز في وصفِه لعالَمه المجهول المُندثِر.

«تفشَّى الطاعون القرمزي في سان فرانسيسكو. ظهرت أولى حالات الوفاة في صباح يوم الاثنين. وبحلول يوم الخميس، كان البشر يموتون كالذباب في أوكلاند وسان فرانسيسكو. كانوا يموتون في كل مكان: في أَسِرَّتهم وفي أماكن عملهم، بل وهم يسيرون في الشارع أيضًا. وفي يوم الثلاثاء، كانت أول حالة وفاةٍ تسنَّى لي رؤيتها هي الآنسة كولربران، إحدى طالباتي. كانت تجلس أمام عينيَّ في قاعة المحاضرات، وقد لاحظتُ وجهها بينما كنتُ أتحدَّث. لقد تحوَّل فجأةً إلى اللون القرمزي. توقَّفتُ عن الحديث ولم أستطع أن أنظُر إلى أيِّ شيء سواها؛ تملَّكَنا جميعًا الخوفُ من الطاعون، وعرفْنا أنه قد حلَّ بالفعل في المكان. صرختِ الفتيات وهرولنَ إلى خارج القاعة، وهرول الفتيان أيضًا فيما عدا اثنين. كانت تشنُّجات الآنسة كولربران خفيفة، ولم تدُم سوى أقلَّ من دقيقة. أحضر لها أحد الفتيَين كأسًا من الماء، لكنها لم تشرب سوى القليل منه وراحَتْ تصرخ:

«قدَمايَ! لم أعُد أشعر بهما على الإطلاق.»

وبعد دقيقةٍ قالت: «لم يعُد لديَّ قدمَين. أنا لا أدري أنَّ لديَّ قدمَين. ورُكبتاي تجمَّدتا. إنني لا أكاد أشعر أنَّ لديَّ ركبتَين.»

كانت مُستلقية على الأرض، وتحت رأسها حزمة من الدفاتر. ولم نكن نستطيع أن نفعل شيئًا. زحفَ الخدَر إلى ما بعد فخذَيها فقَلْبها، وحين وصل إلى قلبِها، ماتت. في

غضون خمس عشرة دقيقة بالضبط، لقد كنتُ أحسُب الوقت بنفسي، كانت قد ماتت، في قاعة محاضراتي، ماتت. كانت فتاةً قوية، صحيحة البدن، وجميلةً للغاية. ومنذ ظهور أولى علامات الطاعون عليها إلى لحظة وفاتها، لم تمرَّ سوى خمس عشرة دقيقة. هذا يوضِّح لكم كيف كان يقضي الطاعون القرمزي سريعًا على حياة المرء.

بالرغم من ذلك، مكثتُ تلك الدقائق القليلة مع الفتاة المُحتضَرة في قاعة محاضراتي. كان القلقُ قد انتشر في أرجاء الجامعة، وقد هجر جميع الطلاب وعددُهم بالآلاف قاعات المحاضرات والمُختبَرات. وحين خرجتُ في طريقي لإبلاغ عميد الكلية، وجدتُها خالية. في أنحاء الحرَم الجامعي، كان هناك عدد من المُتخلفين عن ركْب الفارِّين يُسرعون إلى منازلهم، وقد كان اثنان منهم يركضان.

أما عميد الكلية هوج، فقد وجدتُه في مكتبه وحيدًا. تجلَّى لي كِبَره في السنِّ أكثر من أي وقتٍ مضى. كان شاحبَ اللون، ومُغتمًّا بشدة، كما لمحتُ على وجهه الكثير جدًّا من التجاعيد التي لم أكن قد رأيتها من قبل قط. حين وقع بصرُه عليَّ، نهض على قدمَيه، وترنَّح مُبتعدًا إلى المكتب الداخلي وقد صفَق الباب خلفه وأغلقه. لقد عرفَ أنَّني تعرضتُ للجرثومة، وكان خائفًا بشدة. ناداني من وراء الباب أن أرحل بعيدًا. لن أنسى قطُّ المشاعر التي انتابتْني بينما كنتُ أسير في الممرَّات الصامتة خارجًا عبر الحرَم الجامعي المهجور. لم أكن خائفًا؛ فقد تعرضتُ للجرثومة، واعتبرتُ نفسي في عداد الموتى بالفعل. ولم يكن ذلك هو ما أثَّر فيَّ بشدة، وإنما ذلك الإحساسُ بالاكتئاب المُريع. كلُّ شيءٍ قد توقَّف. كان ذلك بمثابة نهاية العالم بالنسبة إليَّ: نهاية عالَمي. لقد نشأتُ في رحاب الجامعة. كان عملي فيها أمرًا مُقدَّرًا لي؛ فقد كان والدي يعمل أستاذًا بها، وكذلك والده من قبله. على مدى قرنٍ ونصف، ظلت هذه الجامعة كآلةٍ مدهشة تعمل بانتظامٍ وثَبات. والآن، توقَّفَتْ في لحظة. لقد كان الأمر أشبَهَ برؤية نارٍ مقدَّسة تخبو على هيكل الثالوث المقدس. لقد كنتُ مصدومًا، مصدومًا إلى حدٍّ أعجَزُ عن وصفه.

حين وصلتُ إلى بيتي، صرخَتْ مُدبرة شئون منزلي حين دخلتُ، وهربَتْ بعيدًا. واكتشفتُ أنَّ الخادمة قد هربتْ أيضًا. رحتُ أبحث في المنزل. في المطبخ، وجدتُ الطاهية على وشْك الرحيل، لكنها صرخَتْ هي أيضًا. وفي عجَلتِها، سقطتْ منها حقيبة تضمُّ مُمتلكاتها الشخصية، وفرَّت تجري من المنزل عبر الفناء وهي ما زالت تصرُخ. لا زلتُ أسمع صدى صراخها حتى يومِنا هذا. يجب أن تعلموا أننا لم نكن نتصرَّف بهذه الطريقة حين كانت تُصيبنا الأمراضُ المعتادة. فقد كنا نتعامل مع مثل هذه الأمور بهدوءٍ على الدوام، وكنا

نُرسِل في إحضار الأطباء والمُمرضين الذين كانوا يعرفون تمامًا ما الذي يتوجب عليهم فعله. لكن هذا المرض كان مختلفًا. لقد كان يضربُ فجأة، ويقتل بسرعة هائلة، ولم يُخطئ الهدف ولو مرة. فحين كان الطفحُ القرمزي يظهر على وجه أحدِهم، كان يُوقِن ساعتها أنه قد حُكِم عليه بالموت. فلم يُسمَع أبدًا أن حالة واحدة قد شُفيَت.

كنتُ وحدي في منزلي الكبير. ومثلما أخبرتُكم، كنا نستطيع في تلك الأيام أن نتحدَّث بعضنا إلى بعض عبر الأسلاك أو عبر الأثير. رنَّ جرس الهاتف، ووجدتُ أخي يُحدِّثني. وأخبرَني أنه لن يأتي إلى المنزل مَخافةَ أن أنقل إليه العدوى، وأنه قد أخذ أُختَينا ليذهبوا إلى منزل البروفيسور بيكِن. ونَصحَني بأن أبقى حيث أنا وأنتظر لأعرف إذا ما كنتُ قد أُصِبتُ بالطاعون أم لا.

وقد وافقتُ على كلِّ هذا، وبقيتُ في المنزل، وحاولتُ أن أطهوَ لأول مرة في حياتي. ولم أُصَب بالطاعون. من خلال الهاتف، كنتُ أستطيع أن أتحدَّث مع مَن أردتُ وأن أعرف الأخبار. وكانت هناك الجرائد أيضًا، وقد طلبتُ أن تُلقى كلُّها أمام بابي كي أعرفَ ما الذي كان يحدُث في بقية أنحاء العالم.

عمَّتِ الفوضى أرجاءَ نيويورك وشيكاغو. وما كان يحدث فيهما، كان يحدث في المدن الكبيرة بأكملها. مات ثُلث أفراد شرطة نيويورك، ومات رئيسُ الشرطة أيضًا، ولقِيَ عمدة المدينة المصيرَ نفسه. تعطَّل القانون والنظام. وكانت الأجسام مُلقاةً في الشوارع دون أن تُدفن. توقَّفَتْ جميعُ السفن والقطارات والشاحنات التي تنقل الأغذية وما شابَهَ إلى المدينة الكبيرة عن العمل، وراحت الحشودُ من الفقراء الجَوعى ينهَبون المتاجر والمخازن. وانتشر القتْلُ والسرقة والسُّكر في كلِّ مكان. كان البشرُ قد بدءوا بالفعل ينزَحون من المدينة بالملايين. هربَ الأغنياءُ أولًا في سياراتهم الخاصة وطائراتهم، ثُم هرَب السَّوادُ الأعظم من الناسِ سيرًا على الأقدام، حامِلين الطاعونَ معهم. ونظرًا لأنهم كانوا يتضوَّرون جُوعًا، فقد كانوا ينهَبون المُزارعين وجميع البلدات والقرى التي يمرُّون عليها.

كان الرجلُ الذي أرسل هذه الأخبار، عامِل الاتصالات اللاسلكية، يجلسُ وحيدًا مع آلته على قمَّة أحد المباني العالية. أما الأفراد الذين ظلُّوا في المدينة، وقد قُدِّر عددُهم ببضع مئات الآلاف، فقد أصابهم الجنون من شدَّة الخَوف ومن شُرب الخمور. لقد كانت الحرائق الضخمة تشتعِل في كل جانبٍ من حوله. كان بطلًا بحقٍّ؛ إذ ظلَّ مُرابطًا يؤدي وظيفتَه. كان صحافيًّا مغمورًا على الأرجح.



«رنَّ جرس الهاتف، ووجدتُ أخي يُحدِّثني.»

وقد قال إنه على مدى أربعٍ وعشرين ساعة لم تصِل أيُّ طائرة عابرة للمحيط الأطلسي، ولم تصل أيُّ رسائل أخرى من إنجلترا. وبالرغم من ذلك، فقد ذكَر أنَّ رسالةً من برلين، وهي مدينة في ألمانيا، قد أعلنت أنَّ هوفماير، أحد علماء البكتيريا في جامعة متشنيكوف، قد اكتشفَ مَصلًا لهذا الطاعون. تلك كانت الرسالة الأخيرة، ولم نتلقَّ بعدها نحن في أمريكا أيَّ رسائل من أوروبا. لو أنَّ هوفماير قد اكتشف المَصْلَ، فلا بدَّ أنه اكتشفَه بعد فَوات الأوان، وإلا كان وصلَ إلى هنا مُستكشِفون من أوروبا قبل الآن بوقتٍ طويل. لا يُمكننا إذن



«كانوا ينزحون من المدينة بالملايين.»

سوى أن نستنتِج أنَّ ما حدث في أمريكا، قد حدث في أوروبا، وأنَّ السيناريو الأفضل، هو أنَّه لم ينجُ على تلك القارَّة بأكملها سوى بضع عشراتٍ من البشر.

وعلى مدى يومٍ آخر ظلت الأخبار ترِدُ من نيويورك، ثم توقَّفت هي أيضًا؛ فإما أنَّ الرجل الذي كان يبثُّها وهو جالسٌ في مَبناه العالي قد ماتَ بسبب الطاعون، أو أنَّ الحرائق العظيمة التي ذكر أنها كانت تندلع من حوله، قد التهمَتْه. وما حدث في نيويورك، حدث أيضًا في جميع المدن الأخرى. فلم يختلف الوضع في سان فرانسيسكو وأوكلاند وبيركلي.

فبحلول يوم الخميس، كان الناسُ يموتون بسرعةٍ كبيرة حتى إنه لم يعُد مُمكنًا دفْن الجثث أو التخلُّص منها، فكانت جثامين الموتى مُلقاةً في كل مكان.

وفي الخميس ليلًا، بدأ الناسُ يتدفَّقون ذُعرًا إلى خارج البلاد. تخيَّلوا يا أحفادي عددًا ضخمًا من البشر، أضخم من أسراب السلَمون التي رأيتموها في نهر سَكْرمنتو، كان يندفع خارجًا من المدن بالملايين، راحوا يندفعون في جميع أنحاء البلاد بشكلٍ جنوني، وكل ذلك في محاولةٍ يائسة للهروب من الموت الذي حلَّ في كل مكان. لقد كانوا يحملون الجراثيم معهم مِثلما أخبرتُكم. حتى سُفن الأغنياء الهوائية التي كانت تفرُّ إلى العُزلة في الجبال والصحراء، كانت تحمِل الجراثيم.

فرَّت المئات من هذه السفن الهوائية إلى هاواي، وهم لم يحملوا الطاعون معهم فحسب، بل وجدوه قد سبقهم إلى هناك بالفعل. كنا نعرفُ ذلك من الأنباء التي كانت تأتينا، إلى أنْ تلاشى النظام بأكمله من سان فرانسيسكو، ولم يبقَ هناك من عُمالٍ في وظائفهم ليُرسِلوا الأنباءَ أو يستقبلوها. لقد كان فقدان التواصُل مع العالَم أمرًا مُذهلًا ومُدهشًا. لقد كان الأمر يبدو كأنَّ العالم قد توقَّفَ أو اندثَرَ تمامًا. مرَّ ستُّون عامًا منذ أن اختفى هذا العالَم من الوجود بالنسبة إليَّ. إنني أعرفُ أنَّ أماكن مثل نيويورك وأوروبا وآسيا وأفريقيا موجودةٌ بالطبع، لكنَّ خبرًا واحدًا لم يرِدْ عنها على مدى ستِّين عامًا. لقد انهار العالَم مع مجيء الموت القرمزي، انهيارًا تامًّا لا مَرَدَّ له. عشرةُ آلاف عام من الثقافة والحضارة قد انقضتْ في طرفَةِ عَين، تلاشَتْ مِثلما يتلاشى الزَّبَد.

كنتُ أتحدَّث عن السفن الهوائية التي كان يملكها الأغنياء. لقد حملوا الطاعون معهم إلى كلِّ مكانٍ كانوا يفرُّون إليه، وقد ماتوا. لم ألتقِ سوى واحدًا من الناجِين منهم: مَنجرسون الذي انضمَّ إلى قبيلة سانتا روزان فيما بعدُ وتزوَّج ابنتي الكبرى. لقد انضمَ إلى القبيلة بعد الطاعون بثماني سنوات. كان يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا في ذلك الوقت، واضطُرَّ إلى الانتظار اثنَي عشر عامًا لكي يتزوَّج؛ فلم يكن هناك نساءٌ غير مُتزوِّجات، وكانت بعض بنات القبيلة الأكبر سنًّا مخطوباتٍ بالفعل. ولهذا فقد اضطُرَّ إلى الانتظار إلى أن تبلُغ ابنتي ماري ستة عشر عامًا. كان ابنُه هو جيمب-لِج الذي قتله أَسَدُ الجبال في العام الماضي.

كان مَنجرسون يبلغ من العمر أحد عشر عامًا حين أتى الطاعون، وكان والده أحد الأقطاب الصناعية، رجلًا ثريًّا وذا نفوذ. وعلى سفينتِهم الهوائية «كوندور»، كانت الأسرة كلُّها تفرُّ إلى براري بريتيش كولومبيا، والتي تقع إلى الشمال بعيدًا عن هنا. غير أنَّ حادثةً قد وقعَتْ وتحطَّمَت سفينتُهم بالقُرب من جبل ماونت شاستا. لقد سمعتُم بهذا الجبل. إنه

يقع إلى الشمال بعيدًا عن هنا. وانتشر الطاعونُ بينهم، وكان هذا الصبيُّ ذو الأعوام الأحد عشر هو الناجي الوحيد منهم. لقد ظلَّ وحيدًا لثماني سنواتٍ قضاها في التجوُّل في أرجاء أرضٍ مهجورة وهو يبحث بلا جدوى عن أفراد نوعه. وأخيرًا التقى بنا، نحن أفراد قبيلة سانتا روزان، في أثناء سفَرِه جنوبًا.

لكنني بهذا أكون قد استبقتُ أحداث قصَّتي. حين بدأتِ الهجرة العظيمة من المدن المحيطة بخليج سان فرانسيسكو، وبينما كانت الهواتف لا تزال تعمل، تحدثتُ مع أخي. أخبرتُه أنَّ هذا الفرار من المدن أمرٌ جنوني، وأنَّ أعراض الطاعون لم تظهر عليَّ وما يجب علينا فِعله هو أن ننعزِل مع أقاربنا في مكانٍ آمن. استقرَّ رأيُنا على مبنى الكيمياء في الجامعة، وخطَّطنا لأن نضَعَ فيه المُؤَن والسلاح حتى نمنع أي أشخاصٍ آخرين من فرْض وجودهم علينا بعد أن نكون قد أوَيْنا إلى مَلجئنا.

بعد أن أجرَينا كلَّ هذه الترتيبات، رَجاني أخي أن أبقى في منزلي لأربعٍ وعشرين ساعة على الأقل، توخِّيًا لاحتمال أن يكون الطاعون لا يزال ينمو في جسدي. وقد وافقتُ على هذا، ووعد هو بأن يأتي إليَّ في اليوم التالي. واصلْنا الحديث بشأن تفاصيل تزويد مبنى الكيمياء بالمُؤن والدفاع عنه إلى أن تعطَّل الهاتف. لقد تعطَّل ونحن في وسط مُحادثتنا. وفي ذلك المساء، لم تكن هناك أي مصابيح كهربية، وكنتُ وحيدًا في منزلي في الظلام. وقد توقَّفتْ طباعة الصُّحف فلم أكن أدرى بما يحدُث في الخارج.

سمعتُ أصواتَ شغبٍ وطلقات مسدس، ومن نافذتي استطعتُ أن أرى وهَجًا في السماء لحريقٍ ضخم في اتجاه أوكلاند. لقد كانت ليلةً مُرعبة، ولم يغمض لي فيها جفنٌ. لقد قُتِل رجلٌ على الرصيف أمام بيتي. لماذا قُتِل وكيف؟ لم أكن أدري. كنتُ قد سمعتُ طلقاتٍ سريعة تنطلِق من مسدسٍ آلي، وبعدها بدقائق قليلة، زحفَ البائسُ الجريح إلى بابي وهو يئنُّ ويصرُخ طالبًا العَون. سلَّحتُ نفسي بمسدَّسَين آليَّين وذهبتُ إليه. وعلى ضوءِ عود ثقاب، تأكدتُ أنه بينما كان يموت من جروح طلقات الرصاص، كان مُصابًا بالطاعون في الوقت نفسه. فررْتُ إلى الداخل، حيث كنتُ أسمعه وهو يئنُّ ويصرخ على مدى نصف ساعة بعدها.

أتى أخي في الصباح، وكنتُ قد جمعتُ في حقيبة يدٍ الأشياء الثمينة التي اعتزمتُ أخذَها، لكنني حين رأيتُ وجهه عرفتُ أنه لن يُرافقني إلى مبنى الكيمياء. لقد أصابه الطاعون. كان ينوي مُصافحتي لكنني تراجعتُ إلى الخلف بسرعة.

تحدَّثتُ إليه آمرًا: «انظر إلى نفسك في المرآة.»



«سمعتُ أصواتَ شغبٍ وطلقات مسدس.»

فعل مِثلما قلت، وحين رأى وجهه القرمزي، وقد كان اللون يزداد قتامةً بينما راحَ ينظر إليه، تداعى على أحد المقاعد في وهَنٍ وقال: «يا إلهي! لقد أُصِبتُ به. لا تقترِب منِّي. إنني رجلٌ مَيت.»

بعد ذلك، تملكته التشنُّجات. ظلَّ يُحتضَر لمدة ساعتَين، كان واعيًا فيهما حتى اللحظة الأخيرة، وراح يشكو من البرودة وفقدان الإحساس في قدمَيه ثم في رَبْلتَيه وفخذَيه إلى أن وصل ذلك إلى قلبه في النهاية ومات.



تحدثت إليه آمرًا: «انظر إلى نفسك في المرآة.»

كانت تلك هي الطريقة التي يقتل بها الموتُ القرمزي. أمسكتُ بحقيبة يدي وفررت. كان المنظر في الشوارع مُريعًا. فقد كان المرءُ يتعثَّر في الأجساد في كلِّ مكانٍ أثناء سيره، وكان بعضُها لم يمُت بعد. وحتى عندما كنتَ تنظُر، كنتَ تجد أناسًا يتهاوَون ويموتون أمام عينيك. كان هناك العديدُ من الحرائق المُشتعلة في بيركلي، أما أوكلاند وسان فرانسيسكو فقد اجتاحتهما الحرائقُ الهائلة على ما يبدو. لقد ملأ دخان الحرائق السماء حتى إنَّ منتصف النهار بدا مُظلمًا وكئيبًا، ومع تغيُّر اتجاه الرياح، كانت الشمسُ تُشرق أحيانًا

شروقًا خافتًا فكأنها كرة حمراء باهتة. أَصْدُقُكم القول يا أحفادي، بدا الأمرُ وكأننا في الأيام الأخيرة من نهاية العالَم.

كان هناك العديدُ من السيارات التي توقَّفت مُحركاتها عن العمل، مما دلَّ على أنَّ البنزين وإمدادات المحركات قد نفدَتْ من مرائب السيارات. أتذكَّرُ إحدى هذه السيارات. كان بداخلها رجلٌ وامرأة مُلقَيَين على المقاعد وقد فارقا الحياة. وعلى الرصيف بالقُرب من السيارة، كان هناك سيِّدتان غيرهما وطفل. كانت المناظر الغريبة والمُريعة في كلِّ مكان. كان الناسُ يمرُّون في صمتٍ وخلسةً كالأشباح: نساءٌ شاحبات الأوجه يَحملنَ أطفالهنَّ في أذرُعهن، وآباءٌ يقودون الأطفال من أيديهم، كانوا يسيرون فُرادى أو أزواجًا أو أُسَرًا، وكلُّهم يفرُّون من مدينة الموت. كان بعضهم يحمل الغذاء، وبعضهم يحمِل الأغطية والأشياء القَيِّمة، وكان الكثيرون لا يحملون أيَّ شيء.

كان هناك متجر بقالة، وهو مكان يُباع فيه الطعام، كنتُ أعرف صاحبه جيدًا. رجلٌ هادئٌ ورزين، لكنه كان غبيًّا عنيدًا، ظلَّ يُدافع عن متجره. كانت النوافذ والأبواب قد فُتِحت عُنوة، لكنه كان بالداخل يختبئ خلف منضدةٍ ويُطلق النار من مُسدَّسه على عددٍ من الرجال يقفون على الرصيف ويحاولون اقتحام متجره. كان في المدخل عددٌ من جُثَث الذين قد توصَّلتُ إلى أنه قد قتلَهم في وقتٍ سابق من اليوم. وبالرغم من أنني كنتُ أنظر من مسافةٍ بعيدة، رأيتُ أحد السارقين يكسر نافذة المتجر المُجاور الذي كان يبيع الأحذية، ويُشعل فيه النيران. لم أذهب لمساعدة صاحب متجر البقالة؛ فقد كان عصْر مثل هذه الأفعال قد مضى بالفعل. كانت الحضارة تنهار، وكلُّ امرئٍ مسئولٌ عن نفسه.»

الفصل الرابع

واصل الجَدُّ روايته: «ابتعدتُ مُسرعًا واتَّجهتُ إلى شارعٍ مُتقاطع، وفي أول زاوية رأيتُ مأساةً أخرى. كان رجلان من طبقة العُمَّال قد أمسكا برجلٍ وامرأة وطفلين وكانا يَسرقانهم. عرفتُ الرجل من شكله، لكنني لم يسبق أن تعرَّفتُ إليه قط. كان شاعرًا طالما أعجبَني شِعره، لكنني لم أذهب لنجدته؛ إذ إنني قد رأيتُ مُسدَّسًا يُطلَق نحوَه على الفور، ورأيتُه يتهاوى إلى الأرض. صرخَتِ المرأة ولكَمَها أحد المُتوحِّشين فطرَحَها أرضًا. صرختُ فيهما مُهدِّدًا وعندئذٍ أطلقا مُسدسَيهما نحوي؛ فجريتُ مُبتعدًا إلى الشارع التالي، وهناك أعاقَني حريقٌ كبيرٌ زاحفٌ. كانت المباني الموجودة على الجانبَين تحترق وامتلأ الشارع بالدُّخان واللهَب. ومن مكانٍ ما في هذه العتمة، أتى صوتُ امرأةٍ تصرُخ صراخًا حادًّا طالبةً العون. غير أنني لم أذهب إليها، إنَّ قلب المرءِ يتحوَّل إلى حديدٍ وسط هذه المناظر، وقد كان هناك الكثير من النداءات التي تطلب النجدة.

عدتُ إلى الزاوية مرةً أخرى. وجدتُ السارقَين قد اختفَيا، كما وجدتُ الشاعر وزوجته مَيِّتَين على الرصيف. كان منظرًا صادمًا. كان الطفلان قد اختفيا أيضًا ولم أكن أدري إلى أين ذهبا. وحينئذٍ عرفتُ السبب الذي جعل الأشخاص الهاربين الذي صادفتُهم في طريقي كانوا يمرُّون خلسةً بمثل تلك الوجوه الشاحبة. في وسط حضارتنا، في الأزقَّة والأحياء التي يسكن فيها العُمَّال، كنا نُربي جنسًا من البرابرة الهمج، والآن في وقتِ بَلوانا، انقلبوا علينا بما فيهم من وحشيةٍ ودمَّرونا، ودمَّروا أنفسهم كذلك.

كانوا قد ألهَبوا أنفسهم بالخمور القوية وارتكبوا آلافَ الفظائع، من الشِّجار وقتَلِ بعضهم بعضًا في خِضم حالة الجنون المستشري تلك. وقد رأيتُ مجموعةً أخرى من العُمَّال، كانوا من النوع الأفضل، قد تجمَّعوا معًا وبِرفقتهم نساؤهم وأطفالهم. كانوا



«والآن في وقتِ بَلوانا، انقلبوا علينا.»

يضعون المرضى والمُسنِّين على محفَّاتٍ يحملونها، وتصحَبُهم مجموعةٌ من الخيول تجرُّ ملءَ شاحنةٍ من المؤن، كانوا يجاهدون للخروج من المدينة. كان منظرهم جميلًا إذ ظهروا يتقدَّمون في الشارع وسط الدخان المُتصاعد، غير أنهم كادوا يُطلقون النار عليَّ حين ظهرتُ في طريقهم. وبينما كانوا يمرُّون بي، صاحَ بي أحدُ قادتهم بتفسيرٍ اعتذاريٍّ. قال إنهم كانوا يقتلون اللصوص والناهِبين فور رؤيتهم، وإنهم اتَّحدوا معًا على هذا النحو لأنها الطريقة الوحيدة للهروب من المُتربِّصين.

وهنا، رأيتُ لأول مرةٍ شيئًا سرعان ما تكرَّر كثيرًا بعد ذلك. كان أحد الرجال السائرين قد بدتْ عليه فجأةً تلك العلامة الأكيدة للطاعون. وعلى الفور، ابتعدَ عنه المُحيطون به، أما هو، فبدون اعتراض، تنحَّى جانبًا ليسمح لهم بالمرور. حاولتِ امرأة، كانت زوجته على الأرجح، أن تتبَعَه. كانت تقود صبيًّا صغيرًا من يده، غير أنَّ الزَّوج أمرَها بصرامةٍ بمواصلة المسير، بينما أمسك الآخرون بها لمنعِها من اللحاق به. لقد رأيتُ هذا، ورأيتُ الرجل أيضًا وقد تلوَّن وجهه باللون القرمزي، قد انتحى إلى مدخلٍ على الجهة المقابلة من الشارع. لقد سمعتُ طلقة مُسدسه، ورأيتُه يهوي مَيتًا على الأرض.

بعد أن كنتُ قد انتحيتُ جانبًا مرَّتَين بسبب النيران الزاحفة مُجددًا، تمكَّنتُ من الوصول إلى الجامعة. على حدود الحرَم الجامعي، التقيتُ مجموعة من العاملين في الجامعة، وكانوا يسيرون في اتجاه مبنى الكيمياء. كانوا جميعًا رجالًا من أرباب العائلات، وقد كانت عائلاتهم معهم وفيهم المُمرضات والخدَم. حيَّاني البروفيسور بادمينتون، غير أني وجدتُ صعوبةً في التعرُّف إليه. كان قد خاض في اللهب في مكانٍ ما، وسُفِعَتْ لحيته، والتفَّتْ حول رأسه ضمَّادةٌ دامية، كما أنَّ ثيابه كانت مُتَّسِخة.

أخبرَني أنَّ بعض المُتربصين قد ضربوه بقسوة، وأنَّ أخاه قُتِل في الليلة الماضية دفاعًا عن مسكنهم.

وبينما نحن في منتصف الطريق الذي نقطعه عبْر حرم الجامعة، أشار فجأةً إلى وجه السيدة سوينتُن. بدا اللون القرمزي جليًّا فيه. بدأت النساءُ الأخريات يصرخن على الفور ورُحنَ يبتعدْنَ عنها. كان طفلاها يسيران مع ممرضةٍ وقد جرى هؤلاء مع النساءِ أيضًا. غير أنَّ زوجها الدكتور سوينتُن ظلَّ معها.

توجَّه إليَّ بالحديث قائلًا: «واصِل السير يا سميث، واعتنِ بالطفلين. أما أنا، فسأظلُّ هنا مع زوجتي. إنني أعرف أنه قد قُضي عليها بالموت بالفعل، لكنني لا أستطيع أن أتركها. وإذا نجَوت، فسوف آتي لاحقًا إلى مبنى الكيمياء. ولتترقَّبْني وتسمح لي بالدخول.

تركتُه مُنحنيًا على زوجته يُهدئ من رَوعها في لحظاتها الأخيرة، بينما ركضتُ أنا لكي أُدرك المجموعة. كنَّا آخِر من دخل إلى مبنى الكيمياء. وبعد ذلك، حافظنا على انعزالنا ببنادِقنا الآلية. وفقًا لخُططنا، كنا قد رتَّبنا لوجود مجموعةٍ من ستِّين فردًا في هذا الملجأ. غير أنَّ هذا العدد الذي خطَّطنا له في البداية، قد أُضيفَ إليه عددٌ من الأقارب والأصدقاء وأُسَرٌ بأكملها إلى أن أصبح عددُنا يفُوق أربعمائة فرد. بالرغم من هذا، كان مبنى الكيمياء



«أخبرني أنَّ بعض المُتربِّصين قد ضربوه بقسوة.»

كبيرًا ومُنعزلًا عن الأماكن الأخرى، ومِن ثَمَّ كنا في مَأمنٍ من الحرائق الكبيرة التي اندلعَتْ في كل مكان في المدينة.

كُنا قد جمعنا كميةً كبيرة من المُؤن، وتولَّت لجنةٌ للغذاء الإشرافَ عليها فكانت تُخصِّص الحِصَص يوميًّا لمختلف الأُسر والمجموعات الذين قسَّموا أنفسهم إلى جماعاتٍ للحصول على الطعام. شكَّلنا عددًا من اللجان، وأنشأنا منظمةً فعَّالة. كنتُ في لجنة الدفاع، غير أنَّ المُتربصين لم يقتربوا في اليوم الأول، لكننا كنا نستطيع رؤيتهم في الطريق، ومن دُخان نيرانهم عرفنا أنَّ عدة معسكراتٍ منهم كانت تَشغل الطرفَ الأقصى من الحرم الجامعي. شاعَ السُّكر بينهم، وكثيرًا ما كُنا نسمعهم وهم يُغنُّون أغانِيَ ماجِنة ويصيحون بجنون. فبالرغم من أنَّ العالَم قد انهار إلى حطامٍ من حولهم وامتلأ الهواء بدُخان احتراقه، فقد أطلقت هذه الكائنات الوضيعة العِنانَ لبهيمِيَّتِهم وقتلوا وسكروا وماتوا. وفي النهاية،

ماذا كانت أهمية ذلك؟ لقد مات الجميعُ على أيِّ حالٍ، الخَيِّرون والأشرار، الأقوياء والضُّعفاء، مَن كانوا يُحبُّون الحياة، ومَن كانوا يكرهونها. كلُّهم ذهبوا. كلُّ شيءٍ ذهب.

حين مرَّت أربعٌ وعشرون ساعة دون ظهور أيٍّ من علامات الطاعون، هنَّأنا أنفسنا وبدأنا في حفْر بئر. لقد رأيتُم الأنابيب الحديدية الضخمة التي كانت تحمِل المياه في تلك الأيام إلى جميع ساكني المدينة. لقد خَشِينا أن تؤدي الحرائق المُشتعلة في المدينة إلى انفجار الأنابيب وتفريغ الخزَّانات؛ لذا مزَّقنا طبقة الإسمنت بالبهو المركزي في مبنى الكيمياء، وحفرنا بئرًا. كان معنا الكثيرُ من الشباب من طلبة الجامعة، وكنا نعمل في البئر ليلَ نهار. تحقَّقت مخاوفنا، وقبل أن نصل إلى المياه بثلاث ساعاتٍ، جفَّت الأنابيب.

مرَّت أربعٌ وعشرون ساعة أخرى دون أن يظهر الطاعون بيننا. ظننا أننا قد نجَونا، لكننا لم نكن نعرف ما قرَّرْتُ بعد ذلك أنه الحقيقة، وهو أنَّ فترة حضانة جراثيم الطاعون في جسم الإنسان تبلُغ عدة أيام. لقد كان يفتك بالمرءِ بسرعة فور أن يكشِف عن نفسه؛ فظننا أنَّ فترة الحضانة بالسرعة نفسها؛ ولهذا، عندما مرَّ يومان ونحن سالمون كنا مُبتهجِين للغاية بفكرة أنَّ العدوى لم تصل إلينا.

غير أنَّ اليومَ الثالث نزع عنَّا أوهامنا. لا يمكنني أن أنسى أبدًا الليلة التي سبقَتْه. كنتُ مسئولًا عن الحراسة الليلية من الساعة الثامنة إلى الثانية عشرة، ومن سطح المبنى، رأيتُ زوال جميع الأعمال المجيدة التي صنعَها الإنسان. لقد كانت الحرائق المحلية مُريعة للغاية حتى إنَّ السماء بأكملها توهَّجَت؛ فكان من الممكن للمرء أن يقرأ أصغر خطوط الطباعة على هذا الوهَج الأحمر. بدا العالم كلُّه مَحفوفًا باللهَب. وكانت سان فرانسيسكو تنفُث الدخان والنيران التي كانت تتصاعد من مجموعةٍ من الحرائق العظيمة كانت أشبَهَ بعددٍ كبير من البراكين الثائرة. وكانت أوكلاند وسان ليندرو وهايواردز كلُّها تحترق، وفي اتجاه الشمال وصولًا إلى بوينت ريتشموند، كانت هناك حرائقُ أخرى تندلع. لقد كان مشهدًا يبُثُّ الرَّهبة في النفوس. الحضارةُ يا أحفادي، كانت الحضارة تتلاشى وسطَ هذا اللهب المتصاعد وذلك الموت المُحقَّق. في الساعة العاشرة من تلك الليلة، انفجرَتْ مخازن البارود الضخمة الواقعة في بوينت بينول في تعاقُبٍ سريع. وقد كانت الارتجاجاتُ قويةً للغاية حتى إنَّ المبنى القوي اهتزَّ وكأنَّ زلزالًا قد وقع، وتهشَّمت كلُّ الألواح الزجاجية. وحينئذٍ غادرتُ السطح ونزلتُ إلى الممرَّات الطويلة أتنقَّل من غرفةٍ لأخرى كي أُطمئن النساءَ المذعورات وأخبرهنَّ بما حدَث.

بعد ذلك بساعة، أتاني من نافذة بالدور الأرضي صخَبٌ يعمُّ معسكرات المتربصين. سمعتُ أصوات بكاءٍ وصراخٍ وطلقات نارٍ من العديد من المُسدسات. ومثلما ظننا، كان المُحفِّز لهذا الشجار هو محاولة من جانب الأصحَّاء لطرد المرضى. على أي حال، هرب عددٌ من المُتربصين المُصابين بالطاعون عبر الحرم الجامعي وتجمَّعوا أمام أبوابنا. حذَّرناهم بأن يعودوا، لكنهم وجَّهوا لنا السباب وأمطرونا بوابلٍ من الرصاص. قُتل البروفيسور ميريويذر عند أحد النوافذ في الحال؛ فقد أصابته الرصاصة بين عينيه مباشرةً. رددْنا عليهم بإطلاق النار وهرب جميعُ المُتربصين ما عدا ثلاثة، وكان منهم امرأة. كان الطاعونُ يسري في أجسادهم وقد أصابهم الطيشُ. وكشياطين بغيضة، هناك تحت وهَج السماء الأحمر وبأوجهٍ مُتَّقدة، كانوا يَسبُّوننا ويطلقون علينا الرصاصَ. أطلقتُ النارَ على أحد الرجُلين بيدي. وبعد ذلك، ظلَّ الرجل الآخر والمرأة يوجِّهان إلينا السباب حتى سقطا تحت نوافذنا، حيث أُجبرنا على مشاهدتهما وهما يموتان من الطاعون.

كان الوضعُ خطيرًا. حطَّمَت انفجارات مخازن البارود جميع نوافذ مبنى الكيمياء؛ فأصبحنا مُعرَّضين لجميع الجراثيم والجُثث. استدعَينا اللجنة الصحية لكي تتصرَّف، وقد كان تصرُّفها نبيلًا. كان على رَجُلين أن يذهبا إلى الخارج ويتخلَّصا من الجُثث، وهو ما كان يعني احتمال التضحية بحياتِهما، ونظرًا لقيامهما بتلك المهمة، لم يكن سيُسمح لهما بدخول المبنى مرَّة أخرى. تطوَّع أحدُ أساتذة الجامعة، وقد كان عَزَبًا، وأحدُ الطلاب. ودَّعانا وانطلقا. كانا بطلَين. لقد ضحَّيا بحياتهما على أمل أن يتمكَّن أربعمائة شخصٍ آخرون من الحياة. بعد أن أدَّيا مهمَّتهما وقفا للحظةٍ على بُعدٍ ينظران إلينا بحزنٍ، ثم لوَّحا لنا بأيديهما وداعًا وابتعدا ببطءٍ يقطعان الحرم الجامعي باتجاه المدينة المحترقة.

غير أنَّ كلَّ ذلك كان بلا جدوى. ففي صباح اليوم التالي، أُصيبَ أولُ شخصٍ منَّا بالطاعون، وكانت ممرضة لدى عائلة البروفيسور ستاوت. لم يكن هناك مجالٌ للضَّعف أو العواطف في ذلك الوقت؛ فعلى أمل أن تكون هي الوحيدة التي أُصيبت بالعدوى، دفعناها إلى خارج المبنى وأمرناها بالذهاب.

راحتْ تبتعِد ببطءٍ عبر المبنى وهي تعتصِر يدَيها وتبكي بكاءً يُرثى له. شعرنا بأننا مُتوحِّشون، لكن ما الذي كان يمكننا فعله؟ لقد كنا أربعمائة شخصٍ، وكان لا بدَّ من التضحية ببعض الأفراد.

كان هناك ثلاثُ عائلاتٍ تسكن أحد المُختبَرات، وفي عصر ذلك اليوم، وجدْنا بينهم ما لا يقل عن أربع جُثثٍ، وسبع حالات إصابة بالطاعون في جميع مراحله المختلفة.



«دفعناها إلى خارج المبنى.»

بعد ذلك، بدأ الرُّعب. تركْنا الموتى على حالهم، وأرغمنا الأحياء على عزل أنفسهم في حجرةٍ أخرى. بدأ الطاعون ينتشِر بين البقية مِنَّا، وفور ظهور الأعراض، كنا نُرسل المصابين إلى الغُرَف المعزولة. أرغمناهم على المسير إلى هناك بأنفسهم كي نتفادى وضْع أيدينا عليهم. لقد كان ذلك أمرًا مفجعًا، وبالرغم من ذلك، ظلَّ الطاعون يتفشَّى بيننا، وامتلأتِ الغرفة بعد الأخرى بالموتى والمُحتضَرين. ولهذا، فقد تراجَعْنا نحن الأصحَّاء إلى الطابق التالي والذي يليه قبل أن يكتسِح هذا العدد الضخم من الموتى المبنى بأكمله، غرفةً غرفةً وطابقًا طابقًا.

أصبحَ المكانُ مقبرةً، وفي منتصفِ الليل، فرَّ الناجون من المبنى لا يحملون شيئًا سوى الأسلحة والذخيرة والكثير من الأغذية المُعلَّبة. خيَّمنا في جهة الحرَم الجامعي المقابلة للمُتربصين، وبينما وقفَ بعضُنا للحراسة، تطوَّع آخرون للتجوُّل في المدينة بحثًا عن أي أحصنة أو سياراتٍ ذات مُحرك أو عربات تسوُّق أو شاحنات أو أي شيءٍ يحمل مُؤننا ويمكِّننا من مُحاكاة عصبة العُمَّال الذين رأيتهم يناضلون في طريقهم للخروج من المدينة إلى أجواءِ الريف المفتوحة.

كنتُ أحدُ هؤلاء الكشَّافة، وقد أخبرَني الدكتور هويل أن أبحث عن سيارته إذ تذكَّر أنَّه قد تركها في مرآب بيته. ذهبنا في مجموعاتٍ ثنائية، وقد رافقَني دومبي، وهو طالبٌ شاب. كان علينا أن نقطع نصف ميلٍ من الجزء السَّكني في المدينة لكي نصِل إلى منزل الدكتور هويل. هنا، كانت المباني منفصلةً عن بعضها، وسط الأشجار والمُروج المُعشَوشِبة، وهنا كانت الحرائق قد اندلعت بشكلٍ عشوائي فأحرقَتْ بناياتٍ بأكملها وتركتْ بناياتٍ بأكملها، وكثيرًا ما كانت تترُك منزلًا بمُفرده في بنايةٍ كاملة. وهنا أيضًا كان المُتربصون لا يزالون في عملهم. حَملْنا مُسدساتنا الآلية بوضوحٍ في أيدينا، وبدَونا مُستميتين حقًّا، لكي نصُدَّهم عن مُهاجمتنا. غير أنه عند وصولنا إلى منزل الدكتور هويل، حدَث ما كُنَّا نخشاه. فبعد أن كان سليمًا لم يمسسْه أيُّ حريقٍ وحتى عندما وصلنا إليه، اندفع منه دخان اللهب.

راح المُجرم الذي أشعل النيران في المنزل يترنَّح هابطًا على الدرَج ثم خرج إلى ممرِّ السيارات. كان ردُّ فعلي الأول أنني أردتُ أن أُطلق عليه النار، ولم أتوقَّف أبدًا عن الندم لأنني لم أفعل. وإذ راح يترنَّح ويهذي لنفسه، بعينَين حمراوَين وشِقٍّ دامٍ مُلتهب أسفل أحد جانبَي وجهه المُشعِر، وجدتُه أكثر تجسيد مُقزِّزٍ للانحطاط والحقارة. لم أطلق النار عليه، ومالَ هو على شجرةٍ موجودة على العُشب لكي يدعنا نُمر. لقد كان ذلك هو الفِعل الأكثر وحشية على الإطلاق. فعندما أصبحنا أمامه، سحَبَ مُسدسه فجأةً وأصاب دومبي بطلقةٍ في الرأس. أطلقتُ عليه النار في اللحظة التالية. لكن كان الأوان قد فات. لقد مات دومبي على الفور دون حتى أن يئن. إنني أشكُّ أن يكون حتى قد أدركَ ما حدَث له.

غادرتُ الجثَّتَين واتَّجهتُ مُسرعًا إلى المرآب مارًّا بالمنزل المُحترق، وهناك وجدتُ سيارة الدكتور هويل. كانت الخزَّانات مملوءةً بالوقود، وجاهزةً للاستخدام. وفي هذه السيارة، سلكتُ شوارع المدينة المحطمة عائدًا إلى الناجين في الحرَم الجامعي. عاد الكشَّافة الآخرون أيضًا، غير أنهم لم يُحالفهم الحَظُّ كثيرًا. وجد البروفيسور فيرميد مُهرًا من سلالة شتلاند، غير أنَّ الحيوان المسكين كان مُقيدًا في الإسطبل ومتروكًا لعدة أيام وكان ضعيفًا للغاية

من حاجته إلى الماء والغذاء؛ فلم يكن ليحمِل أيَّ حِملٍ على الإطلاق. أراد بعضُ الرجال أن يُطلقوا سَرَاحه، لكنني صمَّمتُ على أن نقتادَه معنا، حتى إذا نفدَ ما لدَينا من طعامٍ، كنا سنُضطرُّ إلى أكله.

كنا سبعةً وأربعين شخصًا حين بدأنا، وكان العديدُ منهم من النساء والأطفال. كان عميد الكلية معنا، وكان رجلًا مُسنًّا قبل كلِّ شيء، والآن حطمَتْه تمامًا الأحداثُ المريعة التي وقعتِ الأسبوع الماضي، فركَبَ السيارة مع العديد من الأطفال الصغار ووالدة البروفيسور فيرميد المُسنَّة، كما ركَبَ السيارة أيضًا البروفيسور واذوب، وهو أستاذٌ شابٌّ للغة الإنجليزية قد أُصيبَ بجرحٍ خطير بسبب رصاصة أصابته في ساقه. وسار البقية مِنَّا مع البروفيسور فيرميد الذي كان يقتاد المُهر.

كان من المُفترض أن يكون اليوم من أيام الصيف الساطعة، غير أنَّ دخان العالَم المحترق قد ملأ السماءَ التي أشرقتْ منها الشمسُ داجية، كرةٌ معتمة شاحبة بلون الدم ومُنذِرة بالشؤم. غير أننا قد تعوَّدنا على تلك الشمس الحمراء الدامية، لكن مع الدخان، كان الأمرُ مختلفًا. لقد كان يلسَعُنا في مناخيرنا وأعيُننا؛ فكانت أعيُنُنا جميعًا حمراءَ بلون الدم. اتَّجهْنا نحو الجنوب عبر الأميال التي لا تنتهي من مساكن الضواحي، فرُحْنا نقطع الطريق حيث ظهرتْ تدريجيًّا في الأرض المُسطَّحة الموجودة وسط المدينة تلالٌ منخفضة. وكان هذا الطريق وحدَه، هو الذي نتوقَّع الوصولَ إلى الريف من خلاله.

كان تقدُّمنا بطيئًا أشدَّ البطءِ؛ فلم يكن النساءُ والأطفال يستطيعون المَشي بسرعة؛ إذ لم يكونوا يتخيلون أن يسيروا يا أحفادي بمثل هذه الطريقة التي أصبح جميع البشر يسيرون بها اليوم. الحقُّ أنَّ أحدًا مِنَّا لم يكن يعرف كيف يسير. إنني لم أتعلم كيف أسير فعلًا إلَّا بعد الطاعون. ولهذا، فقد كنا نسير بالسرعة نفسها التي يسير بها أبطؤنا؛ إذ لم نكن نجرؤ على التفرُّق بسبب المُتربصين. لم يكن هناك الآن عددٌ كبير من هذه الوحوش البشرية. كان الطاعون قد قلَّص أعدادهم بدرجةٍ كبيرة بالفعل، غير أنَّ العدد الذي كان لا يزال على قيد الحياة منهم كان كافيًا لأن يُمثِّل تهديدًا مُستمرًّا لنا. كان هناك العديدُ من المساكن الجميلة التي لم تمسها النيران، لكنَّ الحطام الذي يتصاعَد منه الدخانُ كان في كلِّ مكان. حتى المُتربصون بدا أنهم قد تجاوزوا رغبتَهم الوحشية في إشعال الحرائق، وأصبح نادرًا أن نرى منزلًا حديثَ الاحتراق.

راحَ العديدُ منَّا يتجوَّل في المرائب الخاصة بحثًا عن السيارات والوقود. غير أننا لم ننجح في هذا. فرحلاتُ الهروبِ الأولى من المدينة قد اكتسحَتْ معها جميعَ هذه المرافق.

لقد فقدْنا شابًّا جيدًا يُدعى كالجان في هذه المهمة. فقد أطلقَ بعضُ المُتربصين النارَ عليه أثناء عبوره العُشب، لكنه كان القتيل الوحيد على أي حال. غير أنه، في مرةٍ أخرى، عمَدَ مُتوحشٌ سِكِّير إلى إطلاق النار علينا. ومن حُسن الحظ أنه كان يُطلقها بعشوائية وتمكنَّا من إصابته قبل أن يمسَّنا منه أيُّ أذى.

في فروتفيل، حيث كُنَّا ما نزال في قلب الجزء السكني الرائع من المدينة، ضربَنا الطاعون مرة أخرى. وقد كان البروفيسور فيرميد هو الضحية. أشار إلينا بأنَّ أمَّهُ يجب ألا تعرف، وانتحى جانبًا إلى منزل جميل. جلس بيأسٍ على درَج الشرفة الأمامية، وتباطأتُ أنا فلوَّحتُ له بوداع أخير. في تلك الليلة، وبعد أن تجاوزْنا فروتفيل بعدَّة أميالٍ، أقمْنا معسكرًا وكنَّا ما نزال في المدينة. وفي تلك الليلة، غيَّرْنا مكان المعسكر مرَّتَين لكي نهرُب من موتانا. في الصباح، كان ما يزال هناك ثلاثون منَّا. لن أنسى أبدًا نظرة عميد الكلية. ففي مسيرة الصباح، ظهرتْ على زوجته الأعراض المُميتة، وحين انتحَتْ جانبًا لكي تتركنا نواصِل المسير، أصرَّ على مُغادرة السيارة والبقاءِ معها. دار النقاشُ بيننا بخصوص هذا الشأن، لكننا قد استسلَمْنا في النهاية. فلا بأسَ في ذلك إذ لم نكن نعرِف أيُّنا قد ينجو في النهاية، إنْ نجا أحدٌ منَّا على الإطلاق.

في تلك الليلة الثانية من بدءِ مَسيرتنا، عسكرْنا بعد هايواردز في المساحات الأولى من الريف. وفي الصباح، كان مِنَّا أحد عشر لا يزالون على قيد الحياة. وفي تلك الليلة أيضًا، تركنا البروفيسور واذوب ذو الساق الجريحة في السيارة ذات المُحرك، وأخذ معه أختَه وأمَّه والقدْر الأكبر من مُؤننا المُعلَّبة. وفي عصر ذلك اليوم، بينما كنتُ أستريح على جانب الطريق، رأيتُ آخر سفينة هوائية سأراها على الإطلاق. كان الدخانُ أخفَّ كثيرًا هنا في الريف، وقد رأيتُ السفن الهوائية في البداية وهي تنجرِف وتنحرِف في عجْزٍ على ارتفاع ألفَي قدَم. لم أستطع أن أُخمِّن ما حدث، لكننا رأيناها تتَّجِه بسرعةٍ كبيرة إلى الأسفل. وبعد ذلك، استنتجْنا أنَّ حواجز غُرَف الغاز قد انفجرت؛ فقد سقطت السفينة عموديةً على الأرض.

ومنذ ذلك اليوم إلى الآن، لم أرَ سفينة هوائية أخرى. كثيرًا ما رُحتُ أنظر إلى السماء في السنوات القليلة التالية بحثًا عن أي سفينة، راجيًا أشدَّ الرجاء أن تكون الحضارة قد نجتْ في مكانٍ ما من العالم، غير أنَّ ذلك لم يحدُث. لا بدَّ أنَّ ما حدث معَنا هنا في كاليفورنيا قد حدث مع الجميع في كلِّ مكان.



«سقطت السفينة عموديةً على الأرض.»

مرَّ يومٌ آخر وعندما وصلْنا إلى نايلز، كنَّا ثلاثة. وبعد نايلز، في منتصف الطريقِ السريع، وجدْنا واذوب. تعطلت السيارة، وهناك على البُسُط التي فرشوها، رقدَتْ جُثة أخته وجثة أُمِّه وجُثته هو أيضًا.

كنتُ مُنهكًا في تلك الليلة من مواصلة السير؛ فنِمتُ نومًا عميقًا. وفي الصباح، كنتُ وحيدًا في العالَم. مات آخِر رفيقَين لي، كانفيلد وبارسونز، بالطاعون. من بين الأربعمائة شخص الذين اتخذوا من مبنى الكيمياء ملجأً، ومن بين السبعة والأربعين شخصًا الذين

بدءوا المسير، بقيتُ وحيدًا على قيد الحياة، أنا ومُهر شتلاند. أما عن السبب في حدوث هذا؛ فما من تفسير. إنني لم أُصَب بالطاعون، وهذا كلُّ ما في الأمر. كنتُ منيعًا ضدَّه. لقد كنتُ أنا المحظوظ الوحيد من بين مليون شخص؛ ذلك أنَّ شخصًا واحدًا هو الذي كان ينجو من بين كل مليون شخص، بل من بين عدَّة ملايين. لقد كانت تلك هي النسبة على أقل تقدير.»

الفصل الخامس

أردفَ الجَدُّ يقول: «أقمتُ لمدة يومَين بحديقةٍ جميلة لم يكن فيها أيُّ موتى. وفي هذين اليومَين، بالرغم من أنني كنتُ مكتئبًا ومؤمنًا بأنَّ دوري سيحين في أي لحظة، فقد استرحتُ واستعدتُ قوَّتي. وكذلك فعل المُهر أيضًا. وفي اليوم الثالث، وضعتُ مخزوني الصغير من المُؤن المُعلَّبة على ظهر المهر، ومررتُ بأرضٍ بدَت مهجورةً تمامًا، إذ لم أصادف فيها أيَّ رجلٍ أو امرأة أو طفل، غير أنَّ الموتى كانوا في كلِّ مكان. بالرغم من ذلك، كان الطعامُ وفيرًا. لقد كانت الأرض في ذلك الوقت مختلفة عما هي عليه الآن. لقد كانت خاليةً من الأشجار والأدغال وكانت مزروعة. لقد كان هناك الكثيرُ من الطعام الذي يكفي ملايين الأفواه، ينمو وينضج ويضيع هدرًا. جمعتُ من الحقول والبساتين الخضراوات والفاكهة والحَب. وجمعتُ من المزارع المهجورة البَيضَ وأمسكتُ ببعض الدجاج. وأحيانًا كنتُ أجد أغذية مُعلَّبة في المخازن.

ثمَّة شيءٌ غريب كان يحدُث لجميع الحيوانات المُستأنَسة. لقد أصبحَتْ حيواناتٍ برِّية يفترِس بعضها بعضًا في كل مكان. كان الدجاج والبطُّ هو أول ما هلك، بينما كانت الخنازير هي أول ما توحَّش، وتلتْها في ذلك القطط. ولم تستغرق الكلاب وقتًا طويلًا للتكيُّف في هذه الظروف التي تغيَّرَت. لقد كان هناك غزوٌ حقيقي من الكلاب؛ إذ راحت تلتهِم الجُثث وتنبح وتعوي في الليل، وتتسلل بعيدًا في النهار. وبمرور الوقت، لاحظتُ تغيُّرًا في سلوكها؛ في البداية، كانت تعيش بعيدًا بعضها عن بعض، كانت كثيرة الرِّيبة وكثيرة الشجار. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى بدأتْ تعيش بالقُرب من بعضها وتسير في قطعان. حسنًا، لقد كان الكلب حيوانًا اجتماعيًّا على الدوام، حتى قبل أن يستأنِسَه الإنسان. في الأيام الأخيرة من العالَم قبل الطاعون، كان هناك الكثير والكثير من الأنواع المختلفة من الكلاب: كلاب دون شَعر وكلاب ذات فراء ثقيل، وكلاب صغيرة للغاية حتى إنَّ الواحد منها كان

لا يزيد عن قضمةٍ واحدة في فمِ كلبٍ آخر كبير في حجم أسَدِ الجبال. وقد قُتِلت كلُّ الكلاب الصغيرة والضعيفة على يد أقرانها. وكذلك لم تتكيَّف الكلاب الضخمة على الحياة البرية وانقرضت. ولهذا؛ فقد اختفت الأنواع الكثيرة المختلفة من الكلاب، ولم يتبقَّ سوى الكلاب الذئبية المتوسطة الحجم التي تسير في قُطعان، وهي تلك الكلاب التي تعرفونها اليوم.»

تحدَّث هو-هو مُعترضًا: «لكن القطط لا تسير في قطعان أيُّها الجَدُّ.»

«إنَّ القطط لم تكن يومًا حيواناتٍ اجتماعية. فمِثلما قال أحدُ كُتَّاب القرن التاسع عشر ذات مرة إنَّ القط يمشي وحيدًا. لقد كان يمشي وحيدًا على الدوام، قبل أن يُروِّضه الإنسان، وفي تلك العصور الطويلة من الاستئناس، وحتى حين أصبحت حيواناتٍ برية مرةً أخرى.

توحَّشتِ الخيول أيضًا، وتحوَّل جميعُ ما كان لدَينا من سلالاتٍ جيدة إلى سلالة الحصان البرِّي الذي تعرفونه اليوم. توحَّشت الأبقار أيضًا والحمام والأغنام، وأصبحت جميعها حيواناتٍ برية. وقد نجا عددٌ قليل من الدجاج. غير أنَّ الدجاج البرِّي الذي ترَونه اليوم مختلفٌ عن الدجاج الذي كان موجودًا في تلك الأيام.

لكنني يجِب أن أواصل قصَّتي. رحتُ أقطع هذه الأرضَ المهجورة. ومع مرور الوقت، راح اشتياقي إلى البشر يزيد أكثر فأكثر. غير أنَّني لم أصادِف أحدًا على الإطلاق، وصرتُ أشعر بالوحدة أكثر فأكثر. عبرتُ وادي ليفَرمور فالي والجبال الموجودة بينه ووادي سان خواكين العظيم. لم يسبق لكم أن رأيتُم هذا الوادي أبدًا، لكنه كبير جدًّا وهو مَوطن الخيول البرية. إنها تُوجد هناك في جموعٍ هائلة، بالآلاف وعشرات الآلاف. لقد زُرته مرةً أخرى بعد ثلاثين عامًا؛ لذا فأنا أعرف ذلك. إنكم تظنُّون أنَّ هناك الكثير من الخيول البرية هنا في الوديان الساحلية، غير أنها لا تُقارَن على الإطلاق بالخيول الموجودة في وادي سان خواكين. ومن الأمور الغريبة أنَّ الأبقار حين توحَّشت، عادتْ مرةً أخرى إلى الجبال المُنخفضة؛ إذ يبدو أنها كانت أقدَرَ على حماية نفسها على نحوٍ أفضل هناك.

في أحياءِ الريف، كان من الواضح أنَّ المُتربِّصين والمُتوحِّشين أقل عددًا، فقد وجدتُ العديد من القرى والمدن لم تمسَّها النيران، غير أنها كانت مُمتلئة بموتى الطاعون، وقد مررتُ دون أن أستكشِفها. وبالقُرب من لاثروب، ونتيجةً لِما كنتُ أشعر به من وحدة، أخذتُ معي زوجًا من كلاب الكولي كانا قد فقدا صاحبهما حديثًا وكانا راغبَين بشدة في العودة إلى ولائهما للإنسان. لقد رافقَني هذان الكلبان لسنواتٍ عديدة، وهذه الكلاب التي

تصحبكم اليوم هي من نسلِهما. غير أنَّ ستِّين عامًا قد محَتْ منها سِمات سلالة الكولي. إنَّ هذه الوحوش أشبَهُ بالذئاب المُستأنسة من أيِّ شيءٍ آخر.»

وقف هير-ليب وألقى بصره ليتأكد أنَّ الماعز في أمان، ثم نظر إلى موقع الشمس في السماء مُعلنًا بذلك عن نفاد صبره من الإطناب في حكاية العجوز. وبِحَثٍّ من إدوين على الإسراع، واصلَ الجَدُّ حكايته.

«لم يبقَ سوى القليل لأحكيه. مع كلبيَّ ومُهري وحصانٍ أركبُه كنتُ قد أمسكتُ به قبل ذلك. تمكَّنتُ من عبور وادي سان خواكين ووصلتُ إلى وادٍ رائع في جبال سييرا يُدعى وادي يوسيمتي. في الفندق الكبير الموجود هناك، وجدتُ كمياتٍ هائلة من الأطعمة المُعلَّبة. كان المرعى كبيرًا، وكذلك كانت الطرائد، وكان النهرُ الذي يمرُّ بالوادي مليئًا بأسماك السلمون المُرقَّط. أقمتُ هناك لمدة ثلاثة أعوام في وحدةٍ تامَّة لن يفهمها إلا رجلٌ عاش في أوج الحضارة ذات يوم. ثُمَّ لم أعُد أطيق الأمر أكثر من ذلك. لقد كنتُ حيوانًا اجتماعيًّا مثل الكلب، وكنتُ في حاجةٍ إلى بقية أفراد نَوعي. استنتجتُ أنه من المُحتمَل أن يكون هناك أشخاصٌ آخرون قد نجَوا من الطاعون مثلما نجَوت. واستنتجتُ أيضًا أنَّه لا بدَّ أن تكون جميعُ جراثيم الطاعون قد اختفت بعد ثلاث سنواتٍ وعادت الأرضُ نظيفةً من جديد.

مع حصاني وكلبيَّ ومُهري، انطلقت. ومرةً أخرى عبرتُ وادي سان خواكين، والجبالَ التي تقع خلفه، ونزلتُ إلى وادي ليفرمور. كان التغيُّر الذي حدَث في هذه السنوات الثلاث مُذهلًا. لقد كانت الأرض قبل ذلك تُحرَث وتُزرَع على نحوٍ ممتاز، أما في ذلك الوقت، فلم أكد أستطيع أن أُميِّزها؛ فقد غطَّاها ذلك الغطاءُ النباتي الكثيف الذي تفوَّق على ما تزرعُه يدُ الإنسان؛ لقد كان الإنسانُ يعتني دومًا بالقمح والخضراوات وأشجار الفاكهة؛ فكانت ضعيفةً وهشَّة. وعلى النقيض من ذلك، كان يكافح الحشائش والأدغال البرية ومثل هذه النباتات، فغدَتْ أقوى وأشد. ولهذا، فحين كفَّتْ يدُ الإنسان، اختنقتِ الغالبية العُظمى من النباتات المُستأنَسة بفِعل النباتات البرية وهلكت. زادت أعدادُ ذئاب البراري بدرجةٍ كبيرة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أُصادف فيها الذئاب تسير في مجموعاتٍ ثنائية أو ثُلاثية أو في قطعانٍ صغيرة، في مناطق أكثر انخفاضًا من تلك التي كانت تعيش فيها على الدَّوام.

عند بحيرة تيمسكال، وفي مكانٍ غير بعيدٍ عما كان من قبل مدينة أوكلاند، عثرتُ على أول مجموعة من البشر الأحياء. آهٍ يا أحفادي، كيف عساي أن أصِفَ لكم مشاعري حين كنتُ أمتطي فرَسي هابطًا التلَّ المؤدي إلى البحيرة، ورأيتُ نار المخيَّم تتصاعد عبر الأشجار؟ كادَ قلبي يتوقَّف عن الخفَقان. شعرتُ بأنني سأُجَن، ثم سمعتُ صوتَ بكاء طفل: طفل



«مع حصاني وكلبيَّ ومهري، انطلقت.»

بشري. نبحتِ الكلاب وأجاب كلباي. لم أكن أعرف شيئًا سوى أنَّني الإنسان الحي الوحيد في العالَم بأكمله. لم أكن أتصوَّر أن أجِدَ بشرًا آخرين؛ دُخان وبكاء رضيع!

على البحيرة، هناك أمام عينيَّ على بُعدٍ يقلُّ عن مائة ياردة، رأيتُ رجلًا، رجلًا ضخم الجثة. كان واقفًا على الحَجَر البارز يصطاد السمك. كنتُ في غاية التأثُّر. أوقفتُ حصاني، وحاولت أن أنادي على الرجل لكنني لم أستطع. لوَّحتُ بيدي، وبدا لي أنَّ الرجل قد نظر إليَّ، لكنه لم يلوِّح. بعد ذلك، أسندتُ رأسي على ذراعيَّ هناك على السرج. كنتُ خائفًا من النظر مرةً أخرى؛ إذ كنتُ أعلم أنها هلوسة، وكنتُ أعلم أنني إذا نظرتُ ثانيةً فسوف يختفي

الرجل. وما كان أثمنها من هلوسة حتى إنَّني أردتُ لها أن تستمرَّ لفترةٍ أطول قليلًا. وكنتُ أعلم أنها سوف تستمرُّ ما دمتُ لا أنظر هناك ثانيةً.

وهكذا بَقيتُ على هذا الوضع إلى أن سمعتُ زمجرة كلبيَّ وصوتَ رجلٍ. ماذا تظنُّون أنَّ الصوت قد قال؟ حسنًا، سوف أخبركم. لقد قال: «مِن أيِّ جحيمٍ أتيتَ يا هذا؟»



«الشوفير.»

كانت تلك بالضبط هي الكلمات التي تحدَّث بها إليَّ جَدُّك الآخر يا هير-ليب حين حيَّاني على شاطئ بحيرة تيمسكال قبل خمسة وسبعين عامًا. وقد كانت أقدس كلماتٍ سمعتُها. فتَحتُ عينيَّ ورأيته واقفًا أمامي، رجلًا ضخمًا مُشعِرًا أسمر البشرة، بارز الفكَّين،

مُقوَّس الحاجِبَين، مُتَّقِد العينَين. لا أعرفُ كيف نزلتُ عن حصاني، لكن يبدو أنَّ أول شيءٍ قد عرفتُه بعد ذلك هو أنني أمسكتُ يدَه بكلتا يديَّ ورحتُ أبكي. كنتُ أرغبُ في عِناقه لكنه كان رجلًا مُرتابًا ضَيِّقَ الأُفق، وابتعدَ عنِّي. بالرغم من ذلك، فقد تشبثتُ بيدِه ورحتُ أبكي.»

تهدَّج صوتُ الجَدِّ وانقطع عندما تذكَّر ذلك الأمر، وسالت دموعُ الضَّعف على خدَّيه بينما راحَ الصِّبية ينظرون ويُقهقهون.

واصلَ حديثه قائلًا: «غير أنني رحتُ أبكي وكنتُ أرغب في مُعانقته، لكنَّ الشوفير كان رجلًا فظًّا، كان وحشيًّا تمامًا، لقد كان أبغضَ رجلٍ عرفتُه على الإطلاق. كان اسمُه ... غريب كيف أنني نسيتُ اسمَه. لقد كان الجميعُ يدعونه الشوفير، لقد كان هذا اسم مِهنته، وقد التصقَ به. وهكذا أصبحَت القبيلة التي أسَّسها تُسمَّى إلى هذا اليوم بقبيلة الشوفير.

كان رجلًا عنيفًا وظالمًا. إنني لا أستطيع أن أفهم أبدًا السبب في أنَّ جراثيم الطاعون قد تركتْه. يبدو أنه ما من عدالةٍ في الكون، بالرغم من تصوُّراتنا الميتافيزيقية القديمة عن العدالة المُطلقة. لماذا عاشَ؟ هذا الكائنُ الشرير، وحشٌ في صورة إنسان، وصْمةُ عارٍ على جبين الطبيعة، كائنٌ قاسٍ عنيدٌ بهيميٌّ وغشَّاشٌ أيضًا. كلُّ ما كان يستطيع الحديث عنه هو السيارات ذات المُحرك والآلات والوقود والمرائب، وكان يحلو له على وجه الخصوص أن يتحدَّث بابتهاجٍ كبير عن سَرِقاته المَقيتة، وخداعه الخسيس للأشخاص الذي كان يعمل لحسابهم في أيام ما قبل الطاعون. وبالرغم من ذلك، فقد عاشَ، بينما ماتَ مئات الملايين، بل المليارات ممَّن هم أفضلُ منه.

ذهبتُ معه إلى مُخيَّمه، وقد رأيتُها هناك، فِستا: المرأة الفريدة. لقد كان الأمر رائعًا ... ومُثيرًا للشفَقة. ها هي، فِستا فان ووردن، زوجة جون فان ووردن الشابَّة، ترتدي أسمالًا بالية، وبِيدَين مُشوَّهتَين تمتلئان بالندوب وغلظتا من العمل الشاق، كانت تنحني على نار المُخيَّم وتؤدي مهامَّ الخدَم. إنها فِستا التي وُلدت في أثرى العائلات البارونية التي عرفها العالمُ على الإطلاق. لقد كانت ثروة زوجها جون فان ووردن، رئيس مجلس الأقطاب الصناعية، تُقدَّر بمليارٍ وثمانمائة مليون دولار، لقد كان حاكِم أمريكا. ولأنه كان أيضًا عضوًا في الهيئة الدولية للمراقبة، فقد كان أحد الرجال السبعة الذين كانوا يحكمون العالَم. وقد كانت هي نفسها سليلة أسرةٍ نبيلة بالقدْر نفسه. كان والدها فيليب ساكسون رئيسًا لمجلس الأقطاب الصناعية حتى وقت وفاته. وكان هذا المنصب في طريقه إلى أن يُصبح منصبًا وراثيًّا، ولو كان لفيليب ساكسون ابنٌ لخَلَفَه في تولِّي هذا المنصب. غير أنَّ فِستا



«فِستا: المرأة الفريدة.»

كانت هي ابنته الوحيدة، الزهرة المثالية لأجيالٍ من أرقى الثقافات التي أنتجَها هذا الكوكب على الإطلاق. وبعد أن تمَّتْ خطبة فِستا وفان ووردن، أعلن ساكسون أنَّ الأخير سيكون خليفته. لقد كان زواجًا سياسيًّا بالتأكيد. إنني مُقتنعٌ بأنَّ فِستا لم تُحِب زوجَها يومًا ذلك الحبَّ الجنوني المُتَّقِد الذي كان يتغنَّى به الشعراء. لقد كان زواجهما أشبَهَ بالزيجات التي كانت تجمع بين الملوك قبل أن يحلَّ محلَّهم الأقطاب.

ها هي قد وقفَتْ تغلي حساءَ السمك في وعاءٍ يُغطيه سَوادُ الدخان، وقد ألهبَ الدخان اللاذع المُتصاعد من النار المكشوفة عينَيها الرائعتَين. لقد كانت قصتها قصةً حزينة؛ فقد

كانت الناجية الوحيدة من بين مليون شخص، مثلما كنتُ أنا، ومثلما كان الشوفير أيضًا. على قمَّة رَبوة في تلال ألاميدا التي تطلُّ على خليج سان فرانسيسكو، بنى فان ووردن قصرًا ضخمًا. كان مُحاطًا بحديقةٍ تبلغ مساحتها ألفَ فدان. حين تفشَّى الطاعون، أرسلها فان ووردن إلى هناك. كان الحُرَّاسُ المُسلحون يتولَّون حماية حدود الحديقة، ولم يكن هناك شيءٌ يدخل القصر، من المُؤن أو حتى البريد، دون أن يُعقَّم بالبُخار أولًا. وبالرغم من ذلك، فقد دخلَ الطاعون وقتل الحُرَّاسَ في مواقعهم والخدَمَ وهم يؤدُّون مهامهم، مُكتسحًا هذا الكَمَّ الهائل من الخدَم بأكمله، أو على الأقل جميع هؤلاء الذين لم يَفرُّوا ليموتوا في مكانٍ آخر. وهكذا، وجدتْ فِستا نفسها الإنسان الحي الوحيد في هذا القصر الذي أصبح مقبرة.

والآن، كان الشوفير أحد الخدَم الذين هربوا. وعند عودته بعد ذلك بشهرَين، عثر على فِستا وقد أقامت حياتها في سُرادق صَيفي صغير. لقد كان الشوفير وحشيًّا. ونظرًا لخَوفِها منه، هربتْ بعيدًا واختبأت بين الأشجار. وفي تلك الليلة، سارتْ على قدمَيها وهربتْ إلى الجبال، هي التي لم يعرِفْ جسدُها الرقيق وقدماها الناعِمتان يومًا كدمات الحجارة ولا خدوشَ النباتات المليئة بالأشواك. كان يتعقَّبها، وفي تلك الليلة أمسكَ بها. لقد ضربَها. أتفهَمون؟ راحَ يلكمها بقبضاته البَشِعة وجعلها أَمَةً له. كانت هي التي تجمعُ الأخشابَ وتُقيم النار وتطهو وتؤدِّي جميع أعمال المُخيَّم المهينة، وهي التي لم تؤدِّ أيًّا من مهام الخدَم في حياتها. لقد كان يُرغمها على فعل هذه الأشياء، أما هو، فكان كأمثاله من الهمج يُفضِّل أن يجلسَ في المُخيَّم ويُراقب ما يحدُث. لم يكن يفعل شيئًا، لم يفعل شيئًا على الإطلاق، إلا أن يذهب أحيانًا لصيد الحيوانات أو الأسماك.»

تحدَّث هير-ليب بصوتٍ خفيض إلى الصَّبِيَّين الآخرَين مُعلِّقًا على القصة: «هنيئًا للشوفير. إنني أتذكَّرُه قبل أن يموت. كان عظيمًا. لقد استطاع أن يفعل أشياءً كثيرة بنجاحٍ. تزوَّج أبي من ابنته. كان الشوفير يتفوَّق على أبي إذ كان نذلًا في واقع الأمر. كان يجعلنا نحن الأطفال نقِف حولَه من غير أن نفعل شيئًا، وحتى عندما كان يُحتضَر، طلبَني وضربَني على رأسي بتلك العصا الطويلة التي كان يضعُها بجواره دومًا.»

مسحَ هير-ليب على رأسه المُستديرة مُتذكِّرًا، وعاد الصَّبيَّان إلى العجوز الذي كان يُثرثر بنشوةٍ عن فِستا، زوجة مُؤسِّس قبيلة الشوفير.

«أقولُ لكم إنكم لن تستطيعوا أن تتخيَّلوا بشاعة المَوقف. لقد كان الشوفير خادمًا. أتفهمون؟ كان خادمًا. وكان يتذلَّل مُطأطأ الرأس لشخصٍ مثلها. لقد كانت هي من أسياد الحياة مَولدًا ومُصاهرةً. إنَّ مصائر الملايين من أمثاله، كانت تحملها هي في يدِها البيضاء



«ها هي قد وقفت تغلي حساءَ السمك في وعاءٍ يُغطيه سوادُ الدخان.»

الورديَّة. وفي الأيام السابقة على الطاعون، كان أقل تواصُل مع أمثاله يُعَدُّ تلوُّثًا. آهٍ، لقد رأيتُ هذا. أتذكر أنَّ ذلك قد حدث مع السيدة جولدوين ذات مرة، وقد كانت زوجة أحد الأقطاب الكبار. فأثناء صعودها على متن سفينتها الهوائية الخاصة، سقطتْ منها مظلَّتُها. رفعَها الخادمُ من الأرض وأخطأ بأنْ مدَّ يدَه بالمظلَّة إليها، إليها وهي أحد أعظم السيدات على الأرض! تراجعَتْ هي إلى الخلف كما لو أنه أبرَص وأشارت إلى مُساعدها بأن يأخُذَها منه. وقد أمرت مساعدها أيضًا بأن يعرف اسم هذا الكائن ويتأكَّد من طردِه من الخدمة

على الفور. على هذا النحو كانت السيدة فِستا فان ووردن. ثُم يأتي الشوفير بعد ذلك ليضربها ويجعل منها أَمَةً له.



«ثم يأتي الشوفير بعد ذلك ليضربها ويجعل منها أَمَةً له.»

بيل، لقد كان هذا هو اسمُه، بيل الشوفير. لقد كان رجلًا بدائيًّا بغيضًا، وكان أبعدَ ما يكون عن السلوكيَّات الفطرية الأكثر رُقيًّا ونزعات الشهامة التي تتحلَّى بها النفوسُ المُتحضِّرة. حقًّا، ليس هناك عدالة مُطلقة، إذ وقعت في يده أعجوبة النساء تلك: فِستا فان ووردن. إنكم لن تفهموا أبدًا مدى الفاجعة في هذا الأمر يا أحفادي؛ فأنتم أنفسكم صغار همجيُّون وبدائيُّون لا تدرون شيئًا البتَّة سوى السلوك الهمجي. لماذا لم تكن فِستا زوجةً لي؟

لقد كنتُ رجلًا ذا ثقافة وتهذيب، أستاذًا في جامعة عريقة. بالرغم من ذلك، فإنه في زمن ما قبل الطاعون، كانت هي في مكانةٍ رفيعة للغاية؛ فلم تكن لِتهتمَّ بأن تعلم بوجودي من الأساس. ثم انظروا إلى ما هَوتْ إليه من انحدارٍ سحيق على يدي الشوفير. لم يكن شيءٌ أقل من هلاك البشرية بأكملها ليُتيح لي أن أعرفها وأنظُر في عينَيها وأتحدَّث معها وألمس يدَها وأُحبَّها وأعرف أنها تُكنُّ لي العطفَ والحنان. إنني أعتقد أنها، حتى وهي ما هي، كانت ستُحبُّني إذ لم يكن يُوجَد رجلٌ آخر في العالم سوى الشوفير. لماذا وقد أهلكَ الطاعونُ ثمانية مليارات شخص، لم يُهلك شخصًا واحدًا إضافيًّا وهو الشوفير؟

بينما كان الشوفير يصطاد الأسماك ذات مرة، توسَّلتْ إليَّ أن أقتُله. لقد توسَّلت إليَّ أن أقتله والدموع في عينَيها، لكنه كان رجلًا قويًّا وعنيفًا، وكنت خائفًا. بعد ذلك تحدَّثتُ معه، وعرضتُ عليه أن أعطيه فرَسي ومُهري وكلبيَّ، وجميع ما أملك، مقابل أن يترُك لي فِستا. غير أنه عبَسَ في وجهي وهزَّ رأسه. لقد كان مُهينًا للغاية. قال إنه كان خادمًا، كان كالتراب تحت أقدام الرجال من أمثالي، والنساء من أمثال فِستا، وإنه أصبح لدَيه الآن أعظمُ سيدة على وجه الأرض خادمة له تطهو له طعامه وتُرضع أطفاله. قال: «لقد عشتَ أيامك قبل الطاعون، أما هذه الأيام فهي أيامي أنا، ويا لها من أيامٍ رائعة! إنني لن أقايض للعودة إلى الأيام الخوالي بأي ثمن.» كانت تلك هي الكلمات التي تحدَّث بها، لكنها ليستْ كلماته. فلقد كان رجُلًا وقحًا وضيعًا، وكان لسانه لا يعفُّ أبدًا عن الأيمان البذيئة.

وأخبرَني أيضًا أنه إذا رأى عينيَّ تقع على امرأته، فسوف ينال منِّي، ويضربها هي أيضًا. ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ كنتُ خائفًا؛ إذ كان مُتوحشًا. في الليلة الأولى التي اكتشفتُ فيها المُخيَّم، تحدَّثتُ مع فِستا حديثًا رائعًا عن أمور عالَمنا المُندثر. تحدَّثنا عن الفنِّ والكتب والشعر، بينما كان الشوفير يستمع عابسًا ويهزأ منَّا. لقد كان ضجرًا وغاضبًا من طريقتِنا في الحديث التي لم يكن يفهمها، وأخيرًا تحدَّث قائلًا: «هذه هي فِستا فان ووردن التي كانت من قبل زوجة القطب فان ووردن، جميلة مُتشامخة من عِلية القوم، وهي الآن زوجتي. أجل يا بروفيسور سميث، لقد تغيَّر الزمن. والآن، هلُمِّي يا امرأة وانزعي عنِّي خُفيَّ، أسرِعي! إنني أريد البروفيسور سميث أن يرى كم درَّبتُك جيدًا.»

رأيتُها تجزُّ على أسنانها، بينما يشتعل لهيب التمرُّد في وجهها. رفع قبضته الشرسة ليضرب بها. كنتُ خائفًا وسقيم القلب. لم يكن بوسعي أن أفعل شيئًا لأتغلب عليه؛ لذا فقد نهضتُ لكيلا أشهَدَ مثل هذه المهانة. غير أنَّ الشوفير ضحك وهدَّدني بالضرب إن لم أبقَ وأنظر. وقد جلستُ هناك مُرغمًا بجوار نار المُخيَّم على شاطئ بحيرة تيمسكال،

ورأيتُ فِستا، رأيتُ فِستا فان ووردن وهي تركع على ركبَتَيها وتنزِع الخُفَّين عن ذلك الرجل الوحشي العَبوس كثيف الشعر، والذي هو أشبَهُ بقِردٍ.

آهٍ يا أحفادي، إنكم لا تُدركون صعوبةَ هذا الموقف. أنتم لا تفهمون ما أعنيه بحقٍّ.

تحدَّث الشوفير شامتًا بينما راحَتْ هي تؤدي تلك المهمة البشِعة المُهينة: «ها هي ترتدي الرَّسن وتنصاع للِّجام. إنها تكون عنيدة قليلًا في بعض الأحيان يا بروفيسور، عنيدة قليلًا، لكن ضربة على الفك تجعلها وديعةً ولطيفة كحَمَل.»

وفي مناسبةٍ أخرى قال: «علينا أن نبدأ من جديدٍ ونتناسَل كي نملأ الأرضَ مُجدَّدًا. أنت عاجزٌ عن ذلك يا بروفيسور؛ إذ ليس لديك زوجة، ونحن نُواجِه موقفًا صعبًا في مسألة تكوين «جنَّة عدن». غير أنني لستُ فخورًا بذلك؛ ولذا لديَّ اقتراحٌ لك أيُّها البروفيسور.» أشار إلى طفلته الصغيرة التي لم تكد تبلغ العام، وقال: «ها هي زوجتك، غير أنك ستُضطرُّ إلى الانتظار إلى أن تكبُر. أليس هذا أمرًا ثمينًا؟ إننا جميعًا مُتساوون هنا، وأنا الأقوى بينكم هنا، غير أنني لستُ مُتعاليًا، ليس ذلك من شِيَمي. إنني أمنحك أيُّها البروفيسور، الشرَفَ العظيم في أن تكون خطيبًا لابنتي أنا وفِستا فان ووردن. أليسَ من فداحة سوء الحظ ألا يكون فان ووردن موجودًا ليرى؟»»

الفصل السادس

استأنفَ العجوزُ قصَّتَه قائلًا: «أمضيتُ ثلاثة أسابيع في عذابٍ لا ينتهي هناك في مُخيَّم الشوفير. وبعد ذلك، ضجرًا مِنِّي أو ممَّا كان يعتبِره تأثيري السَّيئ على فِستا، أخبرَني أنه بينما كان يتجوَّل في العام الماضي بين تلال كونترا كوستا مُتجهًا إلى مَضيق كاركينيز، أبصرَ عبر المَضيق دُخانًا. كان هذا معناه أنه يُوجَد بشرٌ آخرون، وأنه قد أخفى عنِّي تلك المعلومة التي لا تُقدر بثمنٍ على مدى ثلاثة أسابيع. غادرتُ على الفور مع كلبيَّ وحصاني، وسافرتُ عبر تلال كونترا كوستا مُتجهًا إلى المضيق. لم أرَ أي دخانٍ على الجانب الآخر، لكنني حين وصلتُ إلى بورت كوستا، وجدتُ بارجةً فولاذية استطعتُ أن أحمل عليها حيواناتي، ووجدتُ قطعةً قديمة من القماش جعلتُها شراعًا لي، وساقَني نسيمٌ جنوبيٌّ عبر المضيق وصولًا إلى أطلال فاليهو في الشمال. هنا، على حدود المدينة، وجدتُ آثارًا تدلُّ على مُخيَّم أقام فيه بشرٌ منذ وقتٍ قريب.

عثرتُ على العديد من أصداف المحار، مما فسَّر لي السببَ في مجيء هؤلاء البشر إلى شُطآن الخليج. كانت هذه هي قبيلة سانتا روزا، وقد تتبعتُ مسارَها على طول طريق السكة الحديدية القديمة، عابرًا المُستنقعات الملحِيَّة إلى وادي سونوما. هنا، عند مصنع الطوب القديم في جلِن إلين، عثرتُ على المُخيَّم. كان جميع الموجودين فيه ثمانية عشر فردًا، منهم رجلان عجوزان؛ أحدُهما جونز الذي كان يعمل في أحد المصارف، والآخر هاريسون الذي كان مُرتهِنًا مُتقاعدًا، وقد تزوَّج مُشرفة مستشفى الأمراض العقلية في نابا. من بين جميع الأشخاص الآخرين في مدينة نابا وفي المدن والقرى الأخرى التي كانت تقع بهذا الوادي الغني المُزدحم بالسكان، كانت هي الوحيدة التي نجَتْ. وبالإضافة لهم، كان يُوجَد ثلاثة شُبَّان، كارديف وهيل اللذان كانا مُزارِعَين، ووينرايت الذي كان عامِلًا باليومية.



«وجدت آثارًا تدلُّ على مُخيَّم أقام فيه بشرٌ منذ وقتٍ قريب.»

وجدوا جميعًا زوجاتٍ لهم. هيل المزارع الأُمِّي الفظ، تزوَّج إيزادور، أروع النساء — بعد فِستا — اللائي نجَونَ من الطاعون. لقد كانت واحدةً من أشهر المُطربات في العالَم، وقد أدركَها الطاعون وهي في سان فرانسيسكو. لقد كانت تتحدَّث معي لساعاتٍ تُخبرني فيها عن مُغامراتها إلى أن أنقذَها هيل أخيرًا في مَحميَّة غابة مندوسينو، وبعدَها لم يتبقَّ لها شيءٌ سوى أن تُصبح زوجته. غير أنَّ هيل كان رجلًا صالحًا؛ فقد كان لدَيه حسٌّ قوي بالعدالة وتأدية الحقوق على الرغم من أُمِّيتِه. وقد كانت أسعدَ حالًا من فِستا التي كانت تُعاني أيَّما معاناة مع الشوفير.

زوجتا كارديف ووينرايت، كانتا من النساء العاديَّات، أَلِفَتا العملَ الشاقَّ ببنيةٍ قوية: كان ذلك هو النوع المُلائم للحياة البرية الجديدة التي اضُطرَّتا إلى عَيشها. وإضافةً إلى هؤلاء، كان هناك اثنان من البالغين البُلهاء يُقيمان بدارٍ لضِعاف الذهن في إل-دريدج، وخمسة أو ستة من الأطفال والرُّضَّع وُلدوا بعد تشكيل قبيلة سانتا روزا. وكانت هناك بيرثا أيضًا. كانت امرأةً صالحة يا هير-ليب بالرغم من ازدراء أبيك لها. وقد اتخذتُها زوجةً لي. إنها أم أبيك يا إدوين، وأبيك أنت أيضًا يا هو-هو. وقد كانت ابنتُها فيرا، هي من تزوَّجَت أباك ساندو يا هير-ليب، والذي كان الابنَ الأكبر لِفستا فان ووردن والشوفير.

وهكذا أصبحتُ الفردَ التاسع عشر في قبيلة سانتا روزا، ولم يُضَف بعدي من الغرباء سوى اثنَين آخرين. أحدُهما كان منجرسون، الذي كان سليلًا للأقطاب، والذي تجوَّل وحيدًا في براري شمال كاليفورنيا لمدة ثماني سنواتٍ قبل أن ينضمَّ إلينا. كان هو مَن انتظر اثنَي عشر عامًا كي يتزوَّج ابنتي ماري. وأما الآخر، فقد كان جونسون الذي أسَّس قبيلة يوتا. كان ذلك اسمَ المكان الذي جاء منه، يوتا، ذلك البلد الذي يقع بعيدًا جدًّا عن هنا على الجهة الأخرى من الصحارى الكبرى باتِّجاه الشرق. لم يصِل جونسون إلى كاليفورنيا إلا بعد سبعةٍ وعشرين عامًا. لقد أخبرَنا أنه لم ينجُ من إقليم يوتا بأكمله سوى ثلاثة أشخاص، هو ورجُلان آخران. عاشَ هؤلاء الرجال الثلاثة معًا على مدى عدة سنوات، وكانوا يصطادون معًا إلى أن يئسوا أخيرًا وخشوا أن ينتهي الجنس البشري تمامًا على الكوكب بمَوتِهم؛ فتوجَّهوا إلى الغرب على أَمَلِ أن يجدوا نساءً قد نجونَ في كاليفورنيا. لقد عبر جونسون الصحارى الكبرى وحدَه، بينما مات فيها رفيقاه. كان يبلغ من العمر ستةً وأربعين عامًا حين انضمَّ إلينا، وقد تزوَّج الابنةَ الرابعة لإيزادور وهيل، وتزوَّج ابنُه الأكبر عمَّتَك يا هير-ليب، والتي كانت الابنة الثالثة لِفستا والشوفير. لقد كان جونسون رجلًا قويًّا، وله إرادتُه المُستقلة؛ ولهذا، فقد انفصلَ عن قبيلة سانتا روزا، وكوَّن قبيلة يوتا في سان هوزاي. إنها قبيلةٌ صغيرة ليس فيها سوى تسعة أفراد، لكن بالرغم من موته؛ فبسبب ما كان له من تأثيرٍ وبسبب قوة نسلِه، سوف تُصبح تلك القبيلة قبيلةً قوية وستؤدي دورًا مهمًّا في إعادة بناء الحضارة على الكوكب.

ثمة قبيلتان أُخرَيان فقط نعرفهما: قبيلة لوس أنجيليتوس وقبيلة كارميليتوس. لقد بدأت الثانية برجلٍ وامرأة. كان الرجل من نسل المكسيكيين القُدامى ويُدعى لوبيز، وقد كان شديد السُّمرة. كان يرعى البقر في المراعي التي تقع خلف كارميل، وكانت زوجتُه خادمةً في فندق ديل مونتي الرائع. مرَّت سبعُ سنواتٍ قبل أن نتواصَل مع قبيلة لوس أنجيليتوس.

إنهم يعيشون في بلدةٍ جيدة في الجنوب، لكنها دافئة للغاية. إنَّ تقديري لعدد سكان العالم في الوقت الحالي يتراوح بين ثلاثمائة وخمسين فردًا وأربعمائة فرد. هذا إن لم يكن هناك قبائل أخرى صغيرة مُتناثرة في أماكن أخرى من العالم. إذا كانت مثل هذه القبائل موجودة، فنحن لم نعرف عنهم شيئًا؛ فمنذ أن عبر جونسون الصحراء من بلده يوتا، لم تأتِنا أي كلمة أو إشارة من الشرق أو أيِّ مكانٍ آخر. إنَّ العالم العظيم الذي عرفتُه في صباي وشبابي قد اندثر. لم يعُد موجودًا. إنني آخِرُ رجل عاشَ في زمن الطاعون ويعرفُ عجائبَ هذا الزمن البعيد. نحن الذين أحكمْنا سيطرتَنا على الكوكب أرضِه وبحرِه وسمائه، وكُنَّا نملك زمامَ كلِّ شيءٍ، أصبحنا نعيش الآن حياة الهمجية البدائية على سواحل مياه كاليفورنيا.

غير أنَّ عدَدَنا يزداد بسرعة؛ فأختُك يا هير-ليب، لدَيها أربعةُ أطفال بالفعل. إننا نزداد بسرعة ونتهيَّأ للنهوض من كبْوَتِنا كي نصنَعَ حضارةً جديدة. بمرور الوقت، سيُجبرنا النموُّ السكاني على الانتشار عبر مناطق أوسع، وبعد مئات الأجيال من الآن، يُمكننا أن نتوقَّع من أحفادنا أن يبدءوا في عبور جبال سييرا، وأن يتقدَّموا ببطءٍ عبر القارة الكبيرة جيلًا بعد جيل، إلى أن يصلوا إلى استعمار الشرق، في زحفٍ جديدٍ للآرية حول العالم.

غير أنَّ ذلك سيحدُث ببطءٍ، أجل، ببطءٍ شديدٍ؛ إذ أمامنا مشوارٌ طويل للصعود من جديدٍ فلقد وقعْنا بلا حولٍ منَّا أو قوة إلى قاعٍ سحيق. كم تمنَّيتُ لو أنَّ فيزيائيًّا واحدًا أو كيميائيًّا واحدًا نجا! غير أنَّ ذلك لم يحدُث، ونَسينا كلَّ شيء. لقد بدأ الشوفير الاشتغالَ بمهنة الحدادة. لقد صنع الكُور الذي نَستخدِمه حتى يومِنا هذا، لكنه كان رجلًا كسولًا، وحين ماتَ أخذ معه كلَّ ما يعرفه عن المعادن والآلات. ما الذي كنتُ سأعرفه أنا عن مثل هذه الأشياء؟ لقد كنتُ أستاذًا كلاسيكيًّا، ولم أكن عالِم كيمياء. وأما الرجال الآخرون الذين نجَوا، فلم يكونوا مُتعلِّمين. لم يُنجِز الشوفير سوى شيئين فقط: صناعة خمْر قوي، وزراعة التَّبغ. لقد قتل فِستا في إحدى مرَّات سُكره. إنني أُومِنُ تمامًا أنه قتلها في إحدى نوبات العربدة التي كانت تنتابه عند السُّكر، بالرغم من أنه كان يؤكِّد دومًا أنها سقطتْ في البحيرة وغرقت.

ودعوني يا أحفادي أُحذركم من المُعالجين الرُّوحيين. إنهم يُسمُّون أنفسهم «أطباء»، مُشوِّهين بذلك ما قد كان من قبلُ مهنةً نبيلة، لكنهم في الحقيقة رجالٌ أشرار للغاية، وهم يُروجون للخُرافة والظلام. إنهم مُخادعون كاذِبون، غير أنَّنا قد صِرنا في مكانةٍ وضيعة ومُنحطة فأصبحنا نُصدِّق أكاذيبهم. هم أيضًا سيزدادون عددًا بينما نزداد نحن، وسوف

يسعَون إلى أن يحكمونا. غير أنهم كاذبون ودجَّالون. انظروا إلى كروس-آيز الشاب وهو يتقلَّد دورَ الطبيب، فيبيع التعاويذ للتغلُّب على المرض ولجلب الصيد الجيد، ويُقايض الوعود بحلول طقسٍ حسنٍ مُقابل اللحوم وجلود الحيوانات، ويُرسِل عصا الموت، ويفعل ألفًا من المُوبقات. غير أني أقولُ لكم إنه يكذِب حين يقول إنه يستطيع أن يفعل هذه الأشياء. أنا البروفيسور سميث، البروفيسور جيمس هوارد سميث، أقولُ إنه يكذِب. وقد واجهتُه شخصيًّا بذلك. لماذا لم يرسل لي عصا الموت؟ لأنه يعرف أنَّ ذلك لن يُجدي معي نفعًا. أما أنت يا هير-ليب، فأنت غارقٌ للغاية في الخُرافة السَّوداء، حتى إنك إن استيقظتَ ذات ليلةٍ ووجدتَ عصا الموت بجانبك، فسوف تموتُ حتمًا. وسوف تموتُ لا لأي ميزةٍ في تلك العصا، وإنما لأنك همَجيٌّ، وعقلك مُعتِم ومُظلم كعقول الهمَج.

لا بدَّ من القضاء على الأطباء واكتشاف كلِّ ما قد ضاعَ من جديد. ولهذا فإنني أجتهد في أن أُعيد عليكم بعضَ الأشياء التي يجِب عليكم أن تتذكَّروها وتنقلوها لأبنائكم من بعدكم. يجب أن تُخبروهم أنه عند تسخين المياه باستخدام النار، ينتُج عنها شيءٌ رائع يُسمَّى البخار، وهو أقوى من عشرة آلاف رجل، ويمكن أن يؤدِّي عمل الإنسان بدلًا منه. ويوجَد الكثيرُ من الأشياء المُفيدة للغاية كذلك؛ ففي وَميض البرق أيضًا، يكمُن خادِم قويٌّ للإنسان كان ذات يوم عبدًا، وسوف يصير عبدًا له من جديدٍ ذات يومٍ من الأيام.

وثمَّة أمرٌ آخر مختلف بعض الشيء، وهو الحروف الأبجدية. إنها ما يُمكِّنني من معرفة معنى العلامات الدقيقة، بينما أنتم أيُّها الصبية لا تعرفون سوى الكتابة البدائية بالصُّوَر. في ذلك الكهفِ الجافِّ الذي يقع في تيليجراف هيل، حيث ترَونَني أذهبُ كثيرًا حين تذهب القبيلة إلى الأسفل بجوار البحر، احتفظتُ بالعديدِ من الكُتب. في هذه الكتب حِكمةٌ عظيمة. ومعها أيضًا قد وضعتُ دليلًا للأبجدية، حتى يتمكَّن من يعرفون الكتابة بالصُّوَر أن يفهموا الكتابة المطبوعة أيضًا. سوف يقرأ البشرُ ثانيةً في يومٍ من الأيام، وإذا لم تقع لكَهْفي حادثةٌ، فسوف يعرفون أنَّ البروفيسور جيمس هوارد سميث قد عاشَ ذات يومٍ وحفظ لهم معرفةَ القدماء.

ثمَّة أداةٌ أخرى صغيرة سيكتشِفها البشرُ حتمًا من جديد، وهي البارود. إنَّها تُمكِّننا من إصابة الهدف بدقةٍ ومن مسافاتٍ بعيدة. يُصنع البارود من أشياء مُعيَّنة موجودة في الأرض تُخلَط معًا بكمياتٍ مناسبة. أما عن ماهية هذه الأشياء، فإما أنَّني قد نسيتُها أو أنَّني لم أعرفها قط. غير أنني أتمنَّى لو كنتُ أعرفها. حينها كنتُ سأذهب إلى كروس-آيز وأقتُله وأُخلِّص الأرضَ من الخُرافة ...»



«في ذلك الكهفِ الجافِّ احتفظتُ بالعديدِ من الكُتب.»

تحدَّث هو-هو بنبرةٍ مُؤكِّدة: «عندما أُصبح رجلًا سأذهبُ إلى كروس-آيز وأعطيه جميعَ ما أستطيع أن أحصل عليه من الماعز والجلود واللحم؛ كي يُعلِّمني أن أكون طبيبًا. وحين أتعلم منه، سأجعلُ الجميعَ طوعًا لي. من المؤكد أنهم سيُصبحون رهنَ إشارتي.»

هزَّ العجوزُ رأسَه بوقارٍ وغمغم:

«كم هو غريبٌ أن أسمع بقايا الحديث الآري المُعقَّد وآثاره تنسابُ من شفتَي هَمجيٍّ صغيرٍ قذِرٍ يرتدي جلود الحيوانات. لقد انقلبَ العالَمُ رأسًا على عقِب، ولم يزل على هذه الحال منذ ظهور الطاعون.»

تحدَّث هير-ليب مُتفاخرًا إلى هو-هو الذي يطمح أن يكون طبيبًا: «لن تجعلني طوعَ أمرك، وإذا دفعتُ لك مقابل إرسال عصا الموت ولم تُجدِ نفعًا، فسوف أحطمُ رأسَك، أتفهمُني يا هو-هو، أتفهم؟»

تحدَّث إدوين بهدوء: «سوف أجعلُ الجَدَّ يتذكَّر مادة البارود هذا، وعندها سأجعلكم جميعًا تعمَلون لأجلي. أنت يا هير-ليب، سوف تخُوضُ المعارك من أجلي وتُحضِر لي اللحمَ. وأنت يا هو-هو سوف تُرسِل عصا الموت نيابةً عنِّي وتُخيف الجميع. وإذا أمسكتُ بهير-ليب وهو يحاول أن يُحطِّم رأسك فسوف أعاقبه بذلك البارود نفسه. إنَّ الجَدَّ ليس بأحمقَ كما تظنَّان، وسوف أستمعُ له، وسوف أصبح زعيمًا عليكم جميعًا ذات يوم.»

هزَّ العجوزُ رأسه بحُزنٍ وقال:

«سوف يأتي البارودُ. لا شيءَ يمكن أن يحول دون مجيئه. إنَّها القصةُ القديمة نفسها تتكرَّر مرةً تلوَ الأخرى. سوف يزيدُ عدد البشر، وسوف يتقاتلون، وبهذه الطريقة وحدَها، بالنار والدم، ستنشأ حضارةٌ جديدة في يومٍ بعيد. وماذا ستكون جدوى كلِّ هذا؟ مثلما تلاشَتْ الحضارةُ القديمة، سوف تتلاشى الحضارةُ الجديدة أيضًا. كلٌّ شيء يتلاشى. وحدَها القوةُ الكونية تبقى هي والمادة، دائمًا في تغيُّرٍ مُستمر، ودائمًا في حالةٍ من الفِعل وردِّ الفِعل لتحقيق الأنواع الأبدية: الكاهن والجندي والملك. من أفواه الأطفال الصغار، تخرج حِكمةُ كل العصور. البعضُ سيُحارب، والبعضُ سيحكُم، والبعضُ سيُصلي، أما الآخرون جميعًا فسوف يَكدُّون ويُعانون أشدَّ المعاناة، بينما يُشيَّد على جُثثهم الدامية، المرة تلوَ الأخرى وبدون نهاية، الجمالُ المُذهل والعجائبُ الفائقة للدولة المُتحضِّرة. ما كان الأمرُ سيختلف لو أنني دمَّرتُ هذه الكتبَ المُخزَّنة في الكهف، فسواءٌ أبَقيت أم اندثرت، فسوف يُكتشَف جميعُ ما ورد فيها من حقائق قديمة، وسوف تُعاش أكاذيبُها وتورَّث. ما جدوى ...؟»

قفز هير-ليب على قدمَيه بسرعة، وهو يلقي نظرةً سريعة على الماعز التي تأكل في المرعى وشمس ما بعد الظهيرة.

تمتم إلى إدوين: «ويحي! إنَّ العجوز يزداد إطنابًا كلَّ يوم. لنذهب إلى المُخيَّم.»

بينما ذهب الاثنان الآخران لجمْع الماعز وقيادتها إلى الطريق الذي يمرُّ عبر الغابة، بمساعدة الكلاب، رافقَ إدوين العجوزَ وقادَه في الاتجاه نفسه. وحين وصلا إلى شريط السكة الحديدية القديم، توقَّف إدوين فجأةً ونظر إلى الخلف. واصلَ السَّير كلٌّ من هير-ليب وهو-هو والكلاب والماعز. كان إدوين ينظر إلى قطيع صغير من الخيول البرية كانت قد نزلت على الرمال الخشنة. كان هناك عشرون منها على الأقل، من الأمهار والأحصنة

الحولية، والإناث البالغة، يقودُها فحْل جميل قد وقفَ في الزَّبَد على حافة الشاطئ بعُنُق مقوَّسة وعينَين جامِحتَين لامعتَين يستنشق الهواء المالِح القادم من البحر.

تساءَل الجَدُّ: «ماذا هناك؟»

وجاءته الإجابة: «خيول. إنَّها المرة الأولى التي أراها على الشاطئ. إنَّ أعدادَ أُسْدِ الجبال تزيد وتزيد، وتدفعها إلى الأسفل.»

ألقت الشمس المُنخفضة من الأعلى حيث الأفق الذي تمُور فيه السُّحب، أشعةً حمراء من الضوء على شكل مروحة. وبالقُرب، في تلك المساحة البيضاء المُقفِرة من المياه التي يُحيط بها الشاطئ، راحت سباع البحر ترفع صوتَها بأغنيتها البدائية القديمة، بينما تجرُّ نفسَها من البحر إلى الصخور السوداء، وراحت تتشاجر وتتحاب.

حثَّ إدوين الجَدَّ على مواصلة السير قائلًا: «هيا أيُّها الجَدُّ.»

استدار العجوزُ والصبيُّ، ذلكما الهمجِيَّان اللذان يرتديان ثيابًا من جلود الحيوانات، وأكملا مسيرهما على الطريق القديم المؤدِّي إلى الغابة، في أعقابِ الماعز.



(النهاية)


هنداوي